رحلات في القارة الأوروبية

بلاد البلطيق

[رحلة وحديث عن المسلمين]

بقلم

محمد بن ناصر العبودي


بسم الله الرحمن الرحيم

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١)- في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢)- رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا -الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣)- مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤)- جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٥)- رحلة إلى سيلان - الرياض - جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م

(٦)- صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - الرياض - دار العلوم ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧)- مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين - بريدة - نادي القصيم الأدبي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨)- إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - مكة المكرمة - نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩)- زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية - الرياض - المؤلف ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠)-شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين - الرياض المؤلف ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١)-في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢)-رحلات في أمريكا الوسطى - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣)-إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض المؤلف ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤)-على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥)-على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦)-في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧)-في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨)-بقية الحديث عن إفريقية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

(١٩)-جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠)-جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١)-داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢)-بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣)-الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤)-مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥)-جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦)-في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧)-بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨)-بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩)-مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠)-ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١)-كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢)-في جنوب الصين - طبع رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣)-كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤)-ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥)-أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦)-على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

(٣٧)-نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨)-بين غينيا بيساو وغينيا كوناكرى - مطابع الفرزدق التجارية عام

١٤١٤هـ.

(٣٩)-من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٤٠)-سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١)-يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢)-نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣)-بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤)-قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥)-حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦)-المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧)-في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨)-رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩)-إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠)-أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١)-في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

(٥٢)-إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣)-حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٤)-زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٥)-سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

(٥٦)-راجستان: بلاد الملوك من سلسلة الرحلات الهندية - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٧)-في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية – طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨)-العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية – طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩)-في شرق البرازيل، من سلسة الرحلات البرازيلية – طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦٠)-هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦١)-من بلاد القرشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية – طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.

(٦٢)-بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال – نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٣)-بلاد الشركس: الإديغي – طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٦٤)-مواطن إسلامية ضائعة - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

(٦٥)-تائه في تاهيتي - طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٦)-نظرة إلى الفلبين، بين زيارتين: رسمية وخاصة. مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٦٧)-زيارات للمسلمين في الاتحاد السوفييتي. مطبعة النرجس في الرياض، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

(٦٨)-في جنوب البرازيل. طبع في مطابع التقنية بارياض عام ١٤٢٠هـ --٢٠٠٠م.

(٦٩)-قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا (من سلسلة الرحلات الكاريبية).

(٧٠)-نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان. طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٧١)-في إندونيسيا: أكبر بلاد المسلمين، مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٧٢)-إقليما سمارا وأستراخان، من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا، نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م

(٧٣)-بلاد البلطيق، رحلة وحديث عن المسلمين. وهو هذا الكتاب.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٧٤)- معجم بلاد القصيم (ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٧٥)- أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٧٦)- الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(٧٧)- كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٧٨)- نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(٧٩)- مأثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٨٠)- سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٨١)- صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٨٢)- العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

(٨٣)- نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء - مطابع التقنية في بالرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٨٤)- المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٨٥)- مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة - بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية - نشرته لجنة

الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

(٨٦)- كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، ونشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(٨٧)- المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة) – ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة.

(٨٨)- مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(٨٩)- رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين – نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٩٠)- الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم وطرق دعمهم. نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

(٩١)- واجب المسلم في بلاد الأقليات. نشرته رابطة العالم الإسلامي في عام ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

(٩٢)- العالم الإسلامي: واقع وتوقعات، نشرته المجلة العربية التي تصدر في الرياض مصاحباً لعددها الذي صدر في ذي الحجة ١٤٢٠هـ.

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي يسر لنا ما كنا تمنيناه، وحقق ما أردناه، من الاطلاع على أحوال الإخوة المسلمين في بلاد روسيا وما جاورها أوصاقبها من بلاد فيها للإخوة المسلمين وجود، فهو وحده المحمود، وهو الفعال لما يريد.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا عبده ورسوله محمد بن عبد الله الذي لولاه بما بلّغه من الوحي عن الله لما سافرنا إلى تلك البلاد، ولما تعرفنا على من فيها من العباد، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين، وصحبه الهداة المهتدين، ومن تبع هداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن هذه رحلة إلى دول البلطيق الثلاث التي هي لتوانيا، ولاتفيا، وإستوينا، وهي بلاد صغيرة مسلط عليها المستعمرون والمحتلون من قديم الزمان، حتى كانت طامة الطامات في احتلال الروس الذي أسموه الحكم السوفييتي، وما هو إلا طغيان من الطغيان في الاحتلال والاغتصاب، ثم الاستملاك والاستلاب.

وكانت بداية ذلك في عام ١٩٤٠ للميلاد، واستمر من دون أن يكون لأهلها حتى الأمل في التملص لا التخلص بل حتى التململ، ولم يكن في مقدورهم إلا التقبل لذلك الإذلال في الاحتلال، حتى أذن الله في وقت قصير، ولحكمة لم تخطر على بال أي خبير، أن يصاب الاتحاد السوفيتي بزلزال من الزلزال العظيم، وكأنما دهمه أمر إلهيّ جسيم، فهد كيانه، وزلزل أركانه، حتى انفرط عقده، وانقضى عهده، وكانت أولى حبات ذلك العقد الذي انتثر، هذه الأقطار البلطيقية الثلاثة التي هي أوروبية. انتهز الأوروبيون ومن تفرع عنهم من الأمريكيين فرصة ليست من صنع أيديهم لتأكيد ذلك الانفراط الذي انقلب إلى انفصال تبعه الاستقلال.

وكان من رعايا تلك الدول جماعات مسلمة قديمة، أغلبها من الإخوة

المسمين بالتتار، وما هم من التتار الذين نعرف في كتب الأسلاف أنهم المغول، ولكنهم من الرعايا المسلمين لدولة (آلتون أورده) التي أسسها المغول، فأسماهم الروس بهذا الاسم (التتار) مع أنه اسم عند مؤرخينا العرب للمغول الكفار، بل إن بعضهم تطرف في التعريف بهم، فذكر أن التتار هم بادية المغول الكفار، وأنهم انصهروا في المغول عندما زحفوا بجيوشهم الهائلة العدد التي يشعر بمن يسمع أخبارها بأنها دائمة المدد.

واليوم يعرف إخواننا المسلمون الذين يسمون بالتتار أنهم ليسوا من المغول، بل ليس بينهم وبينهم أي سبب مقبول، ويعرف الشخص مثلي الذي سافر إلى بلاد المغول الأصيلة، أنهم لا يمتون بأية صلة إلى تلك القبيلة من المغول، بل إنه يقول إنهم يشبهون العرب الشماليين والقوقازيين الآخرين.

والمهم في هذا الأمر أنهم من إخواننا المسلمين الذين حافظوا على إسلامهم من مئات السنين، رغم المحن والإحن والفتن عن الدين، إلا أن معرفتهم بحقيقة الإسلام قد تلاشت من أذهانهم، حتى غدت كالأحلام في المنام، فصار الإسلام عندهم رمز الوجود لهم، بل هو رمز عزهم ومجدهم القديم، وتميزهم عن غيرهم في تلك البلاد.

وكان من صنع الله تعالى لبلادنا العزيزة بلاد الحرمين الشريفين أن هيأ لها قيادة تهتم بأمور المسلمين الأبعدين، كما تهتم بالأقربين، فأنشأت المؤسسات التي تترجم ذلك الاهتمام إلى أعمال، فترسل الرجال والأموال، لتحسس الأمور في بلادهم بغية التيقن من أوضاعهم، وكان لكاتب هذه السطور من تلك الأمور نصيب كبير، فسافر إلى أنحاء العالم، يحمل الحُبَّ والدراهم لزعماء المسلمين ولمؤسساتهم.

وكان من ذلك الاتحاد السوفيتي الهالك، فسافر إلى أنحائه، وطاف في أرجائه، إلا أن زيارته لهذه المنطقة البلطيقية قد أرجئت أكثر من مرة، بعد أن حاول الكرة بعد الكرة.

وقد صح العزم الآن، فكان مما قيده في هذا الشأن هذا الكتاب، والله أعلم بالصواب. وإليه المرجع والمآب.

مكة المكرمة: المؤلف

محمد بن ناصر العبودي



بـــلاد البلطـــيق

يوم الأحد: ٦/٤/١٤١٥هـ ١١/٩/١٩٩٤م

الطريق إلى بلاد البلطيق:

لا يوجد طيران مباشر من بلادنا إلى دول البلطيق، فبلاد البلطيق ليست من البلاد الكبيرة ذات المصالح والعلاقات الضخمة مع الدول الأخرى، لذلك كان لا بد من الوصول إليها الوصول أولاً إلى منطقة قريبة منها يمكن السفر منها إليها مباشرة، فتبادر للذهن أول ما تبادر أن يكون السفر إلى موسكو الأم الشيوعية التي تخلت عن الشيوعية، فتخلت بالتالي عن أولادها الشيوعيين، إلا أن موسكو الآن تمر بمرحلة سيئة من مراحلها من ناحية الأمن والمحافظة على النظام، لأنها مرحلة فاصلة بين مرحلتين شيوعية وحرة، فقد طلقت الشيوعية وتعلقت بالديمقراطية والحرية، ولكنه تعلق غير مريح لكثير من أهلها والتابعين لها، إذ هي لم تتقن بعد الكيفية التي تمارس بها الديمقراطية واقتصاد السوق الحرة.

لذلك لم يكن لنا أن نذهب إليها، وجاء الفرج عندما علمنا أن الخطوط الألمانية (لفت هانزا) تسير رحلة إلى (فيلونس) عاصمة لتوانيا، وأنها مناسبة لنا، فسافرنا من جدة مع الخطوط الألمانية في الساعة الثانية بعد منتصف الليل الذي يفصل بين يومي السبت والأحد، وهو الذي سبق فجر الأحد لذلك هو معدود منه.

وقد غادرت الطائرة الألمانية من طراز الحافلة الجوية (أيرباص) الأوروبي الصنع مطار جدة الدولي الثانية من قبل الفجر، وهو الموعد المحدد لقيامها في الأصل دون تأخير.

وهذه من الحالات النادرة في الطيران.

وقد استقبلنا العاملون في الطائرة من مضيفين وعمال بالتجلة

والاحترام، وذلك لكونهم رأونا نأتي إلى الطائرة على سيارة المكتب التنفيذي أو (صالون) الشرف الذي لا يسافر منه إلا كبار الشخصيات، إضافة إلى ركوبنا معهم في الدرجة الأولى.

كان من الأمور الجديدة في الطائرة الألمانية التي لم تكن في مثيلاتها عندما سافرت عليها من مطار جدة إلى فرانكفورت هذا أكثر من مرة أن تعليمات السلامة وكيفية التصرف خلال الرحلة كانت بالعربية والألمانية، وذلك بالتناوب ما بين اللغتين في شرح طويل مسجل، أما ما لا يصلح فيه التسجيل، فإنه بالإنكليزية بعد الألمانية.

نهضت الطائرة من مطار جدة بسرعة ملحوظة، فبدت مدينة جدة، وهي تسبح في الأضواء الجميلة التي تتخللها الأنهار الصفر من مصابيح الشوارع الرئيسية، وقد حجب الليل ما حولها من أرض الصحراء الغبراء، فبدت كأنها الدرة المضيئة في بستان وهمي، ولولا أن المرء يقارن في العادة بين بلاده وبين البلاد التي هو ذاهب إليها لما جاز أن نذكر شيئاً عن مدينة جدة التي نعرفها جميعاً.

لم يكن السفر في هذه الساعة المتأخرة من الليل أو هي المتقدمة من نهار اليوم التالي بالمريح لا سيما لمن كان مثلي قادماً لتوه من الرياض، فقد وصلت من الرياض إلى جدة في الساعة العاشرة والنصف، وذهبت إلى مكتبي في مكة المكرمة لأخذ بعض الأوراق والأشياء التي أحتاجها في هذه السفرة، ثم عدت فوراً إلى جدة، والمفترض أن يستمر سفرنا إلى طلوع الشمس على ألمانيا، فنبقى في مطار فرانكفورت ساعتين نسافر بعدها إلى فيلونس فنصلها في الظهر أو قبيل ذلك.

كان عدد المضيفات في الدرجة الأولى أكثر مما يحتاجه ركابها لأنها لم تمتلئ بالركاب، ومن عجب أن جميع ركاب الدرجة الأولى الواسعة في هذه الطائرة هم من السعوديين إلا راكبين، على أن أكثر ركاب الدرجة السياحية هم من الأوروبيين، أو ذوي المظهر الأوروبي.

وقد بذلت المضيفات أقصى درجات المجاملة، وهن من المتوسطات في العمر اللائي مارسن الخدمة في مثل هذه الطائرة من قبل حتى أتقنها، ومع ذلك كان حرصهن على مجاملة الركاب في معاملتهم لم يمنع الطبع والطبيعة الألمانية من الظهور عليهن في بعض التصرفات من الحزم الزائد، والطلب الذي قد يصل إلى مرتبة الأمر في بعض الأحيان طبيعة لا تطبعاً، ولا قصداً لعدم المجاملة.

ومن الأشياء اللافتة للنظر في الطائرة تلك الخارطة الكهربائية التي ترتسم على لوحة أمام المسافرين توضح موقع الطائرة من الطريق، وتعقبها لوحة تتناوب معها، بعد ذلك توضح المسافة والوقت وسرعة الطائرة ودرجة الحرارة خارجها.

وهذا أمر كاد يصبح مألوفاً في كثير من طائرات العالم التي تستخدم هذا النوع من الطائرات الأوروبية، والثاني أنهم جعلوا في مقدمة الدرجة الأولى ما يشبه الحانة الصغيرة، عليها وفوقها أنواع المشروبات من المسكرات وغير المسكرات، ومن السار أنه لم يطلب أحد من ركاب الطائرة شيئاً من الخمرة وما تفرع منها.

وقد بادرن الركاب بالشراب، ثم من بعده المقبلات من الكافيار المحاط ببياض البيض، ثم صحن آخر ضمن صحون صغيرة من الإربيان وهو الروبيان بلغتنا العامية، والجمبري باللهجة المصرية، ثم العشاء وأهم ما فيه السرطان المسمى عندهم باللوبستر، وغير ذلك من الأنواع، فكان العشاء والطائرة تجاوز سماء البحر الأحمر إلى القطر المصري، نرى ذلك من الخارطة ولا نرى من النافذة إلا الظلام.

ثم كانت إغفاءة من النوم الخفيف على ذلك الحفيف من صوت المحركات الرتيب الذي يجلب النعاس أكثر مما يثير الانتباه.

في مطار فرانكفورت:

مع أننا من المسافرين العابرين في هذا المطار، فإننا قد حصلنا في جوازاتنا على سمة الدخول إلى ألمانيا من باب الاحتياط؛ لأن بعض الدول الأوروبية صارت الآن تشكك في رعايا الدول العربية فتمنع وصولهم حتى إذا كانوا عابرين إلا بموجب احتياطات شديدة.

عندما كانت الطائرة تهوّم في سماء المطار كان السحاب يحول بيننا وبين رؤيته، وكانت غرة الفجر الوضاء قد أطلت على استحياء من المشرق فوق هذا السحاب الذي يرفل في حلل تحته من الضباب، وعندما اخترقت السحاب ذهب ذلك الضياء، وصار الجو مظلماً يشبه وقت الفجر القريب حيث لا تزال الأنوار فيه مضاءة.

وقد حطت الطائرة في أرض المطار بعد أن أمضت خمس ساعات ونصفاً من الطيران المباشر ما بين جدة وفرانكفورت دون توقف.

وأعلنوا أن درجة الحرارة في المطار هي ١٣ درجة مئوية، وأن الساعة هي السادسة والنصف بتوقيت فرانكفورت، وهي السابعة والنصف بتوقيت بلادنا.

كان المطار قد أصابه مطر قبل وصولنا رأينا آثاره في الأرض.

وجددت عهداً قريباً بهذا المطار كان عندما قدمت إليه من هلسنكي عاصمة فنلندا قبل أقل من سنتين.

نزلت أول النازلين من سلم أحضروه عند باب الدرجة الأولى لكونهم أوقفوا الطائرة في ساحة المطار بعيداً عن مبانيه، ففوجئت بضابط حازم طويل القامة، غليظ التصرف يطلب مني أن أريه جوازي، ولم يسبق لي أن طلب مني أحد رؤية جواز سفري عند باب الطائرة في القدوم قبل هذه المرة، مع أنني زرت العالم كله، وركبت مع أكثر خطوط الطيران في جميع القارات.

أخذ جوازي وأنا متعجب من ذلك ظاناً أنه خصنا بهذا الأمر دون

الركاب، فجعل يقلبه ويقول: إلى أين تذهب بعد فرانكفورت؟ ولم أجبه على ذلك لأن معنا سمة دخول (دبلوماسية) من قنصليتهم في جدة، وجوازي (دبلوماسي) سعودي لا يتطرق الشك إلى حامله.

فأسرعت انتزع الجواز منه وأقول: لتوانيا، وقد تعجب من ذلك إلا أنه تركني أصعد إلى حافلة واقفة بانتظار الركاب، فانتقل إلى رفيقيّ في السفر وهما الأستاذ رحمة الله بن عناية الله المختص بأمور المسلمين في منطقة الاتحاد السوفيتي والصين، والأخ حسن بن علي إزميرلي، ثم انتقل إلى باقي الركاب من السعوديين الذين كانوا ركاب الدرجة الأولى ينظر في جوازاتهم، ويستقصي عنهم بأسئلة أشبه بأسئلة التحقيق، ثم وصل ركاب الدرجة السياحية، وأغلبهم من ذوي المظهر الأوروبي، فيهم قليل من ذوي اللون الأسمر، فكان يترك الأوروبيين يمرون، يكتفي بأن يرفع الرجل منهم جواز سفره فيعرفه من لونه، ويسمح له بالصعود إلى الحافلة دون أن يفتح جوازه. أما الآخرون فإنه كان يدقق معهم، ويوقفهم عنده فترة طويلة؛ مما جعلنا نحن ركاب الدرجة الأولى نتأفف وقد مللنا الوقوف في الحافلة، ونتساءل عما إذا كانت شركة الطيران الألمانية تعامل ركاب الدرجة الأولى بمثل هذه المهانة وعدم المبالاة، وبخاصة لمن يسميهم الأوروبيون بالملونين، مع أنهم هم أيضاً من الملونين الذين لوّنهم الخالق باللون الأصهب أو الأحمر، وقد تكره بعض ظرفائنا من لونهم فأسماه اللون الأبرص، ونحن نعوذ بالله أن نقول بقوله أو بمثل قوله في أي لون، لأن ديننا يأمرنا أن نزن قدر الإنسان بما يكتسبه من عمل لأنه من جهده، لا بما هو عليه من لون لأنه لا يد له فيه، ولم يبذل جهداً في تحصيله.

والذي أثارنا هو أن بعض الأوروبيين قد كشف القناع عن الخداع الذي كانوا يبدونه في أنهم يعاملون الناس سواسية من دون النظر إلى ألوانهم وأديانهم، ولو ذهبت أذكر ما قرأناه في الأيام القليلة الماضية عن ذلك لطال

الكلام الذي ليس هذا مقامه، ولكل مقال مقام، ولكنني أذكر أن بريطانيا أعلنت أنها أو عزت إلى جامعات البلاد بأن لا تقبل الطلاب من بلاد معينة أكثرها عربية وإسلامية في تخصصات علمية مهمة، مثل علوم الذرة والحاسب الآلي والتقنية الدقيقة لئلا يستعملوا ذلك بزعمهم فيما هو ضد مصلحة بريطانيا في المستقبل!.

وهذا تمييز في العلم لا يقبله المنطق السليم.

انطلقت الحافلة الكبيرة ذات المقاعد القليلة الخشبية إلى مسافة طويلة في ساحة وقوف الطائرات قبل أن تدخل إلى مبنى المطار المعهود الذي هو من أكثر المطارات استعمالاً في العالم، ولكن مساحته لا تتناسب مع ذلك، والأهم من ذلك أن الألمان يعاملون الناس فيه وبخاصة ممن لا يفهمون اللغة الألمانية أو الأمور المعتادة في مثل هذه المطارات بخشونة زائدة.

قصدنا قاعة الدرجة الأولى، فأخذت موظفة فيها تذاكرنا وأكملت ما يلزم لها في الطيران مع الخطوط الألمانية أيضاً إلى فيلونس ونحن جلوس في القاعة التي فيها كل ما يشتهيه الراكب حتى (الكراوية) وهي التي نسميها الحبة الحلوة، ويسميها المصريون بالكراوية، ويعرف ورقها الأخضر الذي يستعمل في السلطة بالشبث، وهي تسمية عربية فصيحة، إلى جانب المآكل الخفيفة والمشروبات من حارة وباردة، كل ذلك تتناوله بنفسك، وهذا جيد.

والقاعة لا بأس بسعتها والخدمة فيها، إلا أنني دخلت الحمام فيها فوجدت فيها مرحاضاً واحداً خالياً من الماء والورق، وهذا عجب في هذا المطار الدولي المتقدم.

وفي هذه القاعة صحف بلغات عديدة، منها صحف عربية.

جلسنا في القاعة، وصرت أتأمل حال هذه الأمة الألمانية ونهوضها بعد الهزيمة الماحقة في الحرب العالمية الثانية، وكيف توحدت بعد تشتت رغم رغبة الدول العظمى والأوروبية بعدم توحدها خوفاً من أن تعود إلى سيرتها الأولى في

حب السيطرة، وكيف استعملت ما حققته من تقدم اقتصادي لإعادة توحيدها، وكيف أضعنا نحن العرب فرصاً للوحدة فيما بيننا، حتى البلدان التي تحكمها أنظمة متشابهة كالدول الخليجية، ومثل سوريا والعراق التي يحكمها حزب البعث لم تكتف بعدم التوحد، بل أصبح الكيد العربي للجانب العربي أكبر في أثره ونتائجه من كيد الأعداء، فمتى تستفيق أمتنا من هذا السبات؟ وهل يؤول ذلك السبات إلى ممات؟ أم يستمر الشتات؟ العلم عند رب الأرض والسموات.

تركنا قاعة الدرجة الأولى قاصدين البوابة التي سنخرج منها إلى الطائرة، فرأيت من شدة التفتيش لحقائب المسافرين والخشونة في المعاملة، وإن كانت لا تخرج عن حد الأدب الواجب، ما عجبت له وبخاصة لكون عدد المسافرين كان كبيراً، وقد فتشوا حقيبتي اليدوية تفتيشاً دقيقاً، ولم يكن فيها مما يثير الانتباه إلا مقص وحلاقة للشعر، وهي تظهر في الفاحص الكهربائي لأنها من المعدن، ولكن المفتش عندما رآهما على الحقيقة اعتذر.

لتوانیا



لتوانيا Lithuania

تقع جمهورية لتوانيا على بحر البلطيق في أقصى جنوب منطقة البلطيق في شمال شرق أوروبا، وتنحصر بين روسيا وبولندا، وتبلغ مساحتها ٦٥٢٠٠كم٢، ويتميز سطحها بالسهول والتلال الصغيرة، وتكسو الغابات خُمس مساحتها، وتنتشر فيها بحيرات عديدة يبلغ عددها الآلاف، وأهم أنهارها نيامن.

ولذلك لا عجب أن يكون معنى اسمها (بلاد المطر) لأنه مأخوذ من كلمتي (الياتوفا) فالياتوس تعني المطر بلغتهم، والياتوفا: بلاد المطر أو البلاد المطيرة، وقد تطورت هذه التسمية إلى (لتوانيا).

بلغ سكانها ٣,٧٨٨,٠٠٠ نسمة عام ١٩٩٢م، ويتكونون من ٨٠ ٪ من الليتوانيين، و ٩ ٪ من الروس، و ٧ ٪ من البولنديين.

وديانة اللتوانيين هي الكاثوليكية الرومانية، ثم الأرثوذكسية، وتليها البروتستانتية.



شارع في مدينة فيلونس

وأهم المدن هي: فيلونس العاصمة، ويقدر عدد سكانها بـ ٦٠٠ ألف نسمة.

وكوناس: ويقدر سكانها بنحو ٤٥٠ ألف نسمة.

يتسم اقتصاد لتوانيا بأنها بلاد زراعية، وأهم محاصيلها القمح والبطاطس والبنجر والكتان. وتربية الأغنام.

ويقدر عدد المواشي بحوالي ٢,٥ مليون رأس من الأبقار والأغنام، وفيها من الصناعات صناعة الورق واللدائن (البلاستيك) والألياف الكيمائية والسماد الكيمائي، وأهم معادنها الفحم.

ويرجع أصل اللتوانيين إلى شعب آري استوطن ساحل البلطيق في القرن العاشر الميلادي، وفي عام ١٣٨٦م استطاعت دوقية لتوانيا أن تكون بالاتحاد مع بولندا دولة كبيرة عرفت باسم دوقية لتوانيا الكبرى، وكانت بلاد روسيا البيضاء جزءاً من مملكتها، ومع أنها خضعت لإمبراطورية التون أورده الإسلامية إلا أنها حافظت على كيانها. ثم تعرضت لتوانيا لاحتلال ألماني فيما بين ١٩١٤ – ١٩١٨م، ولكنها استقلت عام ١٩١٩، ثم خضعت للاحتلال الروسي في ٣/ ٨/ ١٩٤٠.

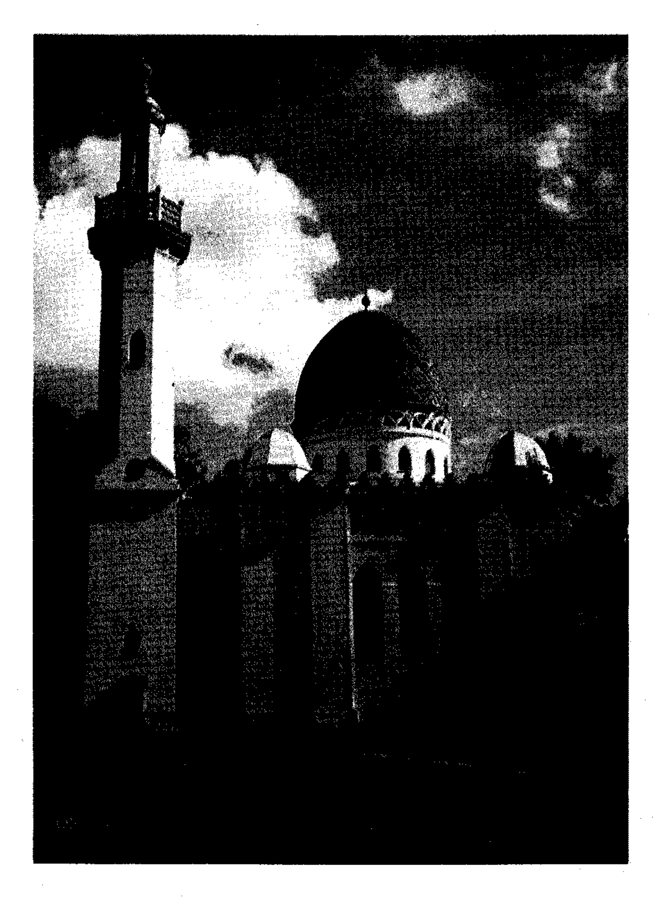
ومع بداية حركة البروستريكا في الاتحاد السوفيتي السابق أعلنت لتوانيا استقلالها في ١١ مارس ١٩٩٠م، وحاول الروس وقف هذا الاستقلال فقتلت القوات السوفيتية المتظاهرين في فيلونس في ١٣/ يناير ١٩٩١م، ولكن توالي اعتراف دول العالم باستقلال لتوانيا أجبر الروس على الاعتراف باستقلالها في سبتمبر ١٩٩١م.

المسلمون في لتوانيا:

يقدر عدد المسلمين في لتوانيا بسبعة عشر ألفاً، وفي العاصمة (فيلونس) وضواحيها ما بين ٣ آلاف إلى أربعة آلاف، ولكن المسلمين ليست لديهم معرفة

بأمور الدين كما سيأتي تفصيل ذلك في اليوميات، وهم مثل غيرهم من السكان في وضع اقتصادي سيئ بعد أن سقطت الشيوعية وصارت البلاد تجتاز عهداً فاصلاً بينها وبين الرأسمالية، ولذلك يحتاج المسلمون إلى معونة إسلامية عاجلة، وإلى خطة متأنية ومدروسة لإعادة الثقافية الإسلامية إليهم.

ومع أن عدد المسلمين تناقص في هذه البلاد حتى كاد يتلاشى، فإن البقية الباقية ظلت متمسكة بهويتها الإسلامية رغم المحن والصعوبات التي مرت بالمسلمين بعد سقوط دولتهم منذ ستمائة سنة أو نحوها.



المسجد الأبيض في كوناس

ولا تزال بقايا ذكريات لهم متمثلة بأسماء شوارع أو نحوها، ففي

العاصمة (فيلونس) ثلاثة شوارع مسماة بأسماء لها صلة بالإسلام والمسلمين مثل (شارع التتار)، و(شارع المسجد)، و(شارع محمد).

وسوف تأتي تتمة متفرقة من الحديث عن المسلمين في لتوانيا فيما بعد إن شاء الله.

من فرانكفورت إلى فيلونس:

في الساعة التاسعة وخمس دقائق كنا نخرج من بوابة المغادرة في مطار فرانكفورت ونركب حافلة غير عريضة، فيها كراسٍ كثيرة، إلا أنها لم تكف للركاب كلهم، فانتظر بعضهم حتى عادت إليهم فحملتهم وكنا مع الأولين.

كانت تذاكرنا مقطوعة من فرانكفورت إلى فيلونس على الدرجة الأولى، غير أنهم ذكروا لنا في مطار فرانكفورت أنه لا توجد في هذه الطائرة درجة أولى، فختموا التذاكر بما يدل على ذلك حتى نستعيد الفرق من الخطوط السعودية التي قطعت التذاكر عند العودة إلى المملكة.

والطائرة من طراز بوينغ ٧٣٧ تابعة أيضاً لشركة (لوفت هانزا) الألمانية.

وقد جعلوا مقاعدنا في الصف الثاني من الطائرة، وهذا جيد غير أن مقاعد الطائرة ليست واسعة، والغريب بالنسبة إلينا أن المضيفة امرأة مسنة؛ بل هي عجوز لم نألف وجود من في سنها في المضيفات في أكثر أنحاء العالم، ومعها رجل في منتصف العمر أيضاً.

وقد تجلت فيهما الطبيعة الألمانية في العمل التي تظهر في السرعة في العمل والإتقان فيه مع الغلظة في المعاملة رغم تظاهرهم أو تطبعهم بخلاف ذلك.

ومن الأشياء الجيدة في هذه الطائرة أنهم وزعوا علينا قائمة الطعام الذي سيقدمونه في هذه الرحلة، ومناديل معطرة مغلفة، رغم أننا جميعاً في الدرجة

السياحية، وقد وزعوها على الجميع.

وقد أعلنت المضيفة بالألمانية ثم الإنكليزية أن السفر سيستغرق ساعتين إلا ثلثاً، وبعد الإنكليزية أعلنوا ذلك بلغة ثالثة فيها غلظ أظنها اللتوانية.

أقلعت الطائرة في العاشرة إلا الثلث بتوقيت فرانكفورت متأخرة عن الموعد المحدد في الأصل لقيامها بربع ساعة.

كان الجو صاحياً على فرانكفورت عند قيامها، لذلك تمتعت برؤية ريف المنطقة في النهار، وهو ريف أوروبي معتاد؛ حيث تختلط الحقول المزروعة الخضر بقطع من الحقول البيض الخالية من الزراعة، وبقطع من الغابات.

وطارت فوق جزء من مدينة فرانكفورت الواسعة ذات الضواحي المتباعدة التي تفصل بينها الخضرة في كثير من الأماكن، ويشقها نهر صغير، وفي ريفها البعيد تجمعات سكنية عديدة متقاربة.

ثم استمرت تطير فوق الريف الأخضر، وإن لم يكن كثيف الخضرة، وتكثر فيه القرى الصغيرة.

ورغم هذه الأرض الخضراء المعطاء فإن البلاد تعتمد في ازدهارها الاقتصادي على الصناعة، وللألمان صناعة يفتخرون بها، يكفي أن يذكر المرء منها سيارات (مرسيدس بنز) القوية الفاخرة.

وكلما أمعنت الطائرة في الطيران كانت تمعن أيضاً في الارتفاع في الجو، وكانت القرى تبدو أصغر، ثم ران سحاب منخفض حجب عنا رؤية الأرض.

وذكرت في ذهني هذه الأرض في الشتاء حيث يسقط الثلج في العادة، فيحيل خصوبتها إلى عقم لا يوجد مثيله في البلدان الدفيئة.

ثم جاءوا بطعام الإفطار وافر الكم، جيد النوع، خالياً من لحم الخنزير

وهذا نادر في الدول الأوروبية أن يكون طعام الإفطار خالياً من لحم الخنزير، مع أن الطائرة متجهة إلى بلد لا يمانع في ذلك.

وأعلن الطيار أن الجو في فيلونس غائم، وإن درجة الحرارة فيها ١٤ درجة.

هذا وقد استمر السحاب الكثيف تحت الطائرة، وقبيل النزول تنزلت الطائرة من عليائها فوق السحاب الكثيف إلى سحاب تحته خفيف أشبه ما يكون بالضباب.

ثم اتضحت أرض لتوانيا أوروبية خضراء، إلا أن مظاهر التنظيم والتقدم فيها قليلة، فالطرق فيها أكثرها غير مزفلت، والأراضي الزراعية والحقول ليست مقسمة بطريقة فنية كما هي عليه الحال في ألمانيا أو فرنسا التي لا يفوقها بلد في هذا المجال التنظيمي.

وتبدو الظاهرة المشتركة في منظر الأراضي الأوروبية حيث تتقاسمها الحقول الخضر والبقع الصفر التي تبين أنها بقايا حقول من القمح الحصيد، إلى جانب قطع متفرقة من الغابات.

وبدت القرى كئيبة المنظر، وبخاصة عند مقارنتها بمنظر القرى في ألمانيا وبقية أوروبا، فلا شوارع مستقيمة فيها، ولا ألوان زاهية في مساكنها.

وظهر نهر في الريف في مجراه متسعات من المياه أشبه بالبحيرات الصغيرة، وهو يتلوى في الريف الأخضر.

ومع تدني الطائرة اتضحت حالة الريف، فتبين أنه لا توجد فيه طرق مزفلتة؛ بل هي طرق ترابية ذات لون سكري يبدو ذلك منها لكونها وسط الخضرة التي كثيراً ما تكون قطعاً من الغابات الكثيفة.

وكثرت البحيرات وتجمعات المياه، ولكن أكثرها ضيق المساحة إلا أن بحيرة منها كبيرة مستطيلة، رأيت منازل عديدة حول ضفافها بخلاف ما كان بعيداً عنها فإنه لا منازل فيه، ثم اتضح أن بعض هذه البحيرة قد أقيمت

حولها المنازل قصداً.

ثم تكاثر عدد البحيرات في هذا الريف الأخضر، وما زالت الطرق ترى فيه ترابية، ووصلنا إلى نهر آخر يبدو أضيق من الأول.

وازدادت خصوبة الأرض في رأي العين، وقربنا من مدينة (فيلونس) فازداد عدد البحيرات الصغيرة، وبعضها كان بقرب غابات، أو بقربه منازل قليلة.

في مطار فيلونس:

بدت مدينة (فيلونس) عاصمة لتوانيا متسعة المساحة، منثورة المنازل تفصل بين أحيائها وضواحيها مساحات من الخضرة والأشجار الكثيفة، ورأينا طريقاً واسعاً مزفلتاً ينطلق منها لم أر مثله في الريف البعيد وفي وسطه جزيرة من الأعشاب غير المنسقة.

وظهرت الأبنية العالية ذات الطبقات المتعددة التي يمكن أن نسميها (العمارات) الشيوعية، لكونها موجودة في أكثر البلاد الشيوعية إن لم تكن فيها كلها، وهي (عمارات) تقيمها الدولة في ضواحي المدن من أجل إسكان المواطنين، لأنها دون غيرها التي تملك أو تستطيع أن تملك بناء المنازل في تلك المدن، أما الأفراد فإنهم لا يستطيعون ذلك.

وقرب المطار بدت طبيعة الأرض ذات ربى خضر متطامنة، وحقول ضيقة فيها منازل ريفية غير حسنة المنظر، وأعشاب كثيفة نضرة.

هبطت الطائرة في الساعة الحادية عشرة والثلث لوقت فرانكفورت في مطار غير واسع المدارج، تحيط بمدارجه أعشاب وحشية نضرة تتناثر فيها أزهار برية صفر وبيض كالتي تكون في بلادنا في الربيع إذا جادها الغيث، وتعتبر أزهاراً صيفية أو خريفية بالنسبة إليهم، وصيفهم هو الربيع لهم لأنه

الذي ينزل فيه المطر بخلاف الشتاء الذي ينزل عليهم الثلج فيه، ويحف بالمطار مما يلي خارجه أشجار فاكهة ريانة.

والمطار صغير الأبنية لأنه كان مطار عاصمة إقليمية، وإن كانوا أسموها جمهورية سوفيتية قبل الاستقلال، ومع ذلك رأيت في المطار عدداً من الطائرات أكثر مما يحتمله مطار عاصمة إقليمية، ومنها طائرات عسكرية حوامة (هيلوكبتر) أكثرها مغطى بأشرعة خضر.

ولا شك أن ذلك من نصيبهم من تركة الاتحاد السوفيتي السابق الذي كانوا داخلين أو مدخلين فيه.

وعلى الطائرات المدنية كتبوا اسم خطوطهم الوطنية التي أنشأوها بعد الاستقلال (لال)، وهي اختصار لجملة (لتوانيا آير لانز).

وأكثر الأبنية والآلات التي نراها في المطار هي قديمة، وحتى مبنى المطار قديم أيضاً، وفيه قسم يجددونه الآن.

دخلنا إلى مبنى المطار فبدا كأنما هو قصر قديم من قصور النبلاء القدماء، فهو ضيق المساحة بالنسبة إلى أبنية المطارات، وعالي السقوف حتى كأن ذلك من أجل المباهاة بارتفاعها.

ومن الطريف الذي يقل نظيره أن باب المدخل من الداخل الذي تكون فيه مكاتب الجوازات في العادة، وهو ضيق جداً، قد وقف فيه ثلاثة ضباط للجوازات ليس أمام الضابط شيء من المكاتب أو نحوها؛ بل كلهم وقوف يختمون الجوازات، وأكثر الركاب هم من الأوروبيين الذين لا يشترطون لهم سمة دخول، أو من المواطنين العائدين لبلادهم مما جعلهم يسرعون في ختمها، وأما جوازاتنا فإن عليها سمة من سفارتهم في موسكو كنا أرسلناها إلى هناك ووضعوا عليها سمة الدخول بوساطة السفارة السعودية في موسكو، لذلك لم يتوقف عندها أيضاً، وانتهينا من عنده بسرعة فائقة.

ومع ذلك رأيت لافتة تقول: أن ثمن السمة هو ٤٨ دولاراً يريدون أنهم

يمنحون السمة في المطار لمن يحتاجون إليها بـ ٤٨ دولاراً.

دخلنا إلى قاعة تسلم الحقائب، وهي نفسها قاعة المكس (الجمرك)، وفيها سير متحرك قصير جاءت منه الأمتعة، ووجدنا عربات اليد مربوطة بسلسلة من الحديد لا تؤخذ منها، ولم نجد من يحلها ولو بأجر، فحملنا أمتعتنا، ووجدنا ضباط (الجمرك) عندهم جهاز كهربائي تفحص به الحقائب فتدخل فيه ويطلعون على ما فيها دون أن يفتحوها، فأريناهم جوازاتنا بأنها (دبلوماسية) فأعفونا من ذلك أيضاً، وهذا أمر جيد لأننا نحمل مبالغ مالية تظهر في الفاحص، ونحن لا نريد ذلك من أجل الأمن، لا من أجل أن إدخالها مخالف لأي قانون.

خرجنا إلى قاعة صغيرة من هذا المبنى القديم، يخرج منها إلى رصيف الشارع، فتوقفنا عند مكتب لخدمات السياح عليه فتى طلبنا منه أن يحجز لنا ثلاث غرف في فندق في وسط المدينة، فأسرع يقول: إنه فندق (ستوريا) وذكر أن الغرف فيه بـ ٣٢ دولاراً أو بـ ٨٠ دولاراً، حسب سعة الغرفة. وحجز فيه بالهاتف.

كما صرفنا نقوداً من مصرف صغير.

وقال فتى المكتب: هل تريدون سيارة أجرة ؟ ثم أسرع يدعو شاباً تكلم بلغتهم فنادى هذا سائق أجرة وقال: أعطوه خمسة عشر دولاراً، وتبين أنهم قد اشتركوا في الزيادة إذْ قلت لهم: هل هذه الأجرة المقررة من الحكومة ؟ فقال أهل السيارات قرروها.

في مدينة فيلونس:

كان أول ما صدم أنظارنا عند خروجنا من مبنى المطار أن السيارات الواقفة عنده هي سيارات قديمة مهلهلة، معظمها من طراز (لادا) الروسي إلا

أنه قديم، أو مفتقر للصيانة، وأحضر السائق سيارته وهي من طراز (فولقا) الروسي الذي هو أكبر كثيراً من (لادا)، ولكنها مهلهلة ليس فيها شيء ذو مظهر مقبول، وحتى الناس الذين رأيناهم، وأكثرهم من سائقي سيارات الأجرة هم ذوو وجوه متجهمة.

سارت السيارة وهي تقرقع وتخشى أن تتقطع، وزاد ذلك حالة الطريق المفتقر إلى الترميم.

ولم نسر طويلاً حتى بدأت منازل المدينة التي بدت طبيعتها جميلة جداً لأنها مؤلفة من ربى خضر غير عالية تظللها الأشجار الباسقة، وتتباعد منازلها في أطرافها وضواحيها تباعداً جميلاً، إذْ تفصل بينها الحدائق والمساحات الخضر، ولكن كل شيء فيها يبدو عليه الإهمال وعدم العناية.

وقد وصلنا بسرعة إلى قلب المدينة حيث يوجد الفندق، إلا أن السائق دار بنا دورة في القلب القديم، أو ظهر لنا أنه فعل ذلك من أجل أن يبرر أخذه هذا المبلغ الكبير من الأجرة، وكنا حملنا الأمر على محمل آخر إذْ خفنا من أن يكون يريد أن يذهب بنا إلى مكان آخر، فكلمته بلغة الإشارة لأنه لا يعرف الإنكليزية ولا أية لغة أخرى نعرفها.

وقف عند فندق (ستوريا) فكان بابه غير جيد ولا واسع، وكذلك مكتب الإدارة فيه إلا أنه تبين أنه واسع جداً من الداخل.

وقد كتبوا عليه أنه من ذوات النجوم الأربع، ووجدنا في مكتب الاستقبال امرأتين جميلتين تبين أنهما أنموذج للجمال الرائع في البلاد؛ إذ تبين لنا أن الجمال البلطيقي جمال متميز في أقطار البلطيق الثلاثة: لتوانيا، ولاتفيا، وإستونيا.

أنزلونا في الغرف التي ذكرها لنا مكتب المطار، وهي صغيرة من ذوات السرير الواحد خالية من الحمام، وإنما حمامها مشترك، وهي ضيقة تعتبر أرضية مع أنها في الدور الأول؛ لأن سقفاً يظلل الطبقة التي تحتها يمكن أن

يدخل منه إلى نافذتها.

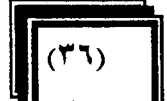
دخلت الحمام العام من مفتاح أعطوني إياه حتى لا يستعمله غير النزلاء، فوجدت بابه لا يفتح إلا بصعوبة، وجميع ما فيه ذكرني بفنادق الاتحاد السوفيتي، وليس فيه ماء حار مع أن الجو بارد داخل الفندق.

ولم أطق صبراً على النزول في هذه الغرفة، فانتقلت إلى غرفة بـ٩١ دولاراً في الطابق الثاني، وهي واسعة ذات سريرين متباعدين وحمام داخلي نظيف فيه عدد من الفوط (المناشف) السوفيتية إن صح التعبير، وهي التي تكون ضيقة، أي قليلة العرض مستطيلة بحيث إن الفوطة التي نستعملها نحن يمكن أن يشقوها فتكون ثلاث فوط من فوطهم، ولكنهم جعلوا معها فوطاً قماشية مكوية للوجه غير عريضة أيضاً.

وفي الغرفة هاتف، وجهاز كبير للتلفزة لم استعمله لأنني لم أجد الوقت لذلك.

ولاحظت أن الطريقة الروسية في الحمامات موجودة في هذه الغرفة الغالية، فبزبوز الماء وهو الصنبور الذي يصب منه الماء هو واحد طويل، وأسفله الملتصق بالجدار يتحرك بحيث يصب إذا أردت في حوض غسل الأيدي، وإذا احتجت إلى الماء في حوض الاستحمام دوّرته إليه، وليس لحوض الاستحمام (البانيو) أي صنبور للماء غيره، وأرضه مفروشة بالخشب إلا أنه تآكل في عدة أماكن فرقعوه بأخشاب أخرى مخالفة للون خشبه الأصلي، فصارت كأنها الرقعة في الثوب إضافة إلى كونها نشاز تحت الرجل.

وتطل الغرفة على ميدان مهم وإن كان غير واسع، من قلب المدينة القديم عليه كنيسة قديمة جددوا البرج الذي يعلوه الصليب دون غيره منها مثل أكثر الأبنية في قلب المدينة؛ بل إننا رأينا عدداً من المنازل الكبيرة متهدماً كأنما خرج من حرب.



ولا شك في أن السبب في ذلك هو الإهمال وقتل روح الابتكار والتجديد، بل روح المبادرة الذي أثرت عليهم فيه الشيوعية.

ولاحظت أن المارة من الناس عليهم ملابس ثقيلة مما يوحي بأن الجو بارد مع أننا لم نحس بذلك، ولكننا ظننا أن ذلك بسبب قدومنا من بلادنا الحارة.



شارع في المدينة القديمة في فيلونس

ولاحظت أن المارة هم الأوروبيون الذي نعرفهم، إلا أن الشقرة أغلب عليهم، وهم أجمل من الأوروبيين الغربيين مظاهر، لولا العوز والحاجة الواضحة عليهم مثلما عليه الحال بالنسبة لأغلب سكان الدول الشيوعية السابقة.

إلا أن الذي لاحظته أيضاً أنهم ألطف أخلاقاً وأحسن معاملة من الروس ومن لف لفهم من أهل أوروبا الشرقية.

وقد نزل المطر رذاذاً، وكانت بي حاجة إلى النوم فأخلدت إلى الراحة.

مع زعيم مسلم:

كان معنا عدة عناوين لشخصيات من كبار المسلمين في البلاد، فهاتفنا أحدهم وهو الأخ (أدس ياكوبا وك)، وأدس: سمعت بعض الطلبة العرب هنا يسمونه (عدس) بالعين بديلة من الهمزة، ولا أدري صحة ذلك، وقد سألناه عن أصل اسمه هذا فلم يعرفه، أما (ياكوبا) فهي يعقوب، و(وك) هي ابن باللغة الليتوانية.

ومما يذكر أن جميع المسلمين المعروفين في هذه البلاد هم من التتار الذين لهم لغة خاصة بهم متفرعة من اللغة التركية القديمة، ولا يزال يتكلم بها التتار الذين بقوا في ديارهم في جمهورية تتارستان ذات الحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية، وفي بلاد القرم، وقد ذكرت شيئاً من حال تتار القرم في كتاب لي مطبوع عنوانه: "في بلاد القرم"، كما تكلمت على جمهورية تتارستان في كتاب "الرحلة الروسية" وهو مطبوع أيضاً.

ولكن التتار في هذه البلاد نسوا لغتهم كما نسوا أو أنسوا أشياء كثيرة من تاريخهم، فصاروا لا يستعملون إلا اللغة الليتوانية لغة الأكثرية من المواطنين، ويتعلمون اللغة الروسية لكونها لغة العلم والثقافة أثناء الحكم السوفيتي في البلاد، فمثلاً الأخ (أدس) له شعر باللغة الروسية طبع له بها ديوان صغير أهداني نسخة منه، فقلت له: إننا لا نعرف حرفاً من الروسية فكيف بهذا الشعر، وكان قد حصل على شهادة الماجستير في اللغة الروسية.

حضر الأخ أدس أو عدس في السادسة قبل المغرب، وقد جلس معنا في غرفتي لمدة ساعتين ونصف تناولنا فيها الحديث المتعب عن أوضاع المسلمين بخاصة، وعن الأوضاع عامة في هذه البلاد، وذلك لكونه لا يعرف من اللغات إلا ما لا نعرفها، ما عدا قليلاً من الإنكليزية يعرفه، فكنا نتفاهم معه به، وإلا فإن رفيقنا في الرحلة الأستاذ رحمة الله بن عناية الله يعرف اللغة التتارية

بلهجتيها القازانية والقرمية، وهذا الأخ التتاري لا يعرفها.

وقدمنا له الشاي في الغرفة، وسألناه عما إذا كان يوجد محل قريب لنشتري منه فاكهة، فذكر أنه لا يوجد الآن، ونحن بعد المغرب إلا محل واحد يبيع الفاكهة، ولكنه بعيد من الفندق يحتاج إلى سيارة أجرة.

وقد واعدناه الحضور غداً في التاسعة من أجل القيام بالجولة على المساجد والمؤسسات الإسلامية في البلاد.

وكان الأخ أدس زعيماً للجمعية التتارية في لتوانيا عندما حصلنا على عنوانه، إلا أنه الآن لا يشغل هذا المنصب، بل إنه رئيس جمعية أخرى أسسها منذ عهد قريب كما ذكر اسمها جمعية الدعم الإسلامي أو جمعية دعم العمل الإسلامي في لتوانيا، غير أنه لم يتم تسجيلها حتى الآن، ولم ينضم إليها أحد من الناس بعد.

يوم الإثنين: ٧/ ٤/ ١٤١٥هـ ١٢/ ٩/ ١٩٩٤م

صباح لتوانيا:

أزحت ستارة النافذة في غرفتي في الفندق فكان الصباح مشرقاً ذا شمس ساطعة خلاف ما كان عليه الأمر أمس، وهذا مفرح لنا لأننا نستطيع أن نصور ونكتب أثناء الجولة بحُرِّيَّة.



وفد الرابطة في المدينة القديمة في فيلونس

وكان الهدوء الذي هو الطابع على الحركة في هذه البلاد قد تجلى في قلة الحركة في الميدان المهم الذي يقع عليه فندقنا.

والتقطت صورة من النافذة للميدان حين لم أجد فيما يسترعي انتباهي غير ذلك.

ثم نزلنا إلى مطعم الفندق في الطابق الأول من دون مصعد، فليس في

هذا الفندق الذي ذكروا أنه من ذوات النجوم الأربع مصعد، وذلك لكونه مؤلفاً من ٤ طوابق، والعادة في الأبنية في الاتحاد السوفيتي السابق أنهم لا يجعلون المصاعد في الأبنية إلا ما زادت طبقاتها عن خمس، حتى أبنية المساكن الشعبية إذا كانت طبقاتها خمساً فما دون تركوها بدون مصعد.

فكان طعام الإفطار مائدة مفتوحة محدودة - إن صح التعبير - إذ الأطعمة والأشربة فيه أقل تنوعاً من أمثاله في البلدان الحرة؛ فضلاً عن البلاد التي اشتهرت بخيراتها وبوفرة الإفطار فيها مثل بلاد البرازيل – عمرها الله تعالى – التي يكون الإفطار فيها أكثر تنوعاً من طعام العشاء، وقد ذكرت ذلك في الكتب التي ألفتها عن البرازيل، وعددها سبعة.

وكان الجمال يصافح العيون في هذا المطعم الذي تحسبه صغيراً عندما تدخله لأنك تدخل إليه في غرفة صغيرة، غير أنها تفتح على عدة غرف أخرى متداخلة كلها داخلة في المطعم.

ولاحظت أن العاملات في المطعم هن من المواطنات الجميلات، وكذلك بعض الآكلات من سكنة الفندق على غاية من الرشاقة وخفة الجسم من دون نحافة، وهو أمر يقل وجوده - إن لم نقل إنه يندر أو يعدم - في العاملات الروسيات في مثل هذه المطاعم.

إذْ تكون الواحدة منهن نصَفَاً أو تقرب من ذلك، وتكون ثقيلة الوزن، غليظة الجسم، خشنة التقاسيم.

وقد رأيت أن ذلك كثير في أهل هذه البلاد، ومنه ومن غيره يتبين أنهم جنس بشري متميز عن جيرانهم السلافيين من البولنديين وعن جيرانهم الآخرين من الروس، وجيرانهم الذين يفصل بينهم فاصل ضيق من بحر البلطيق، وهم الفنلنديون فأولئك جميعاً يختلفون عنهم مع تباين فيهم في ذلك.

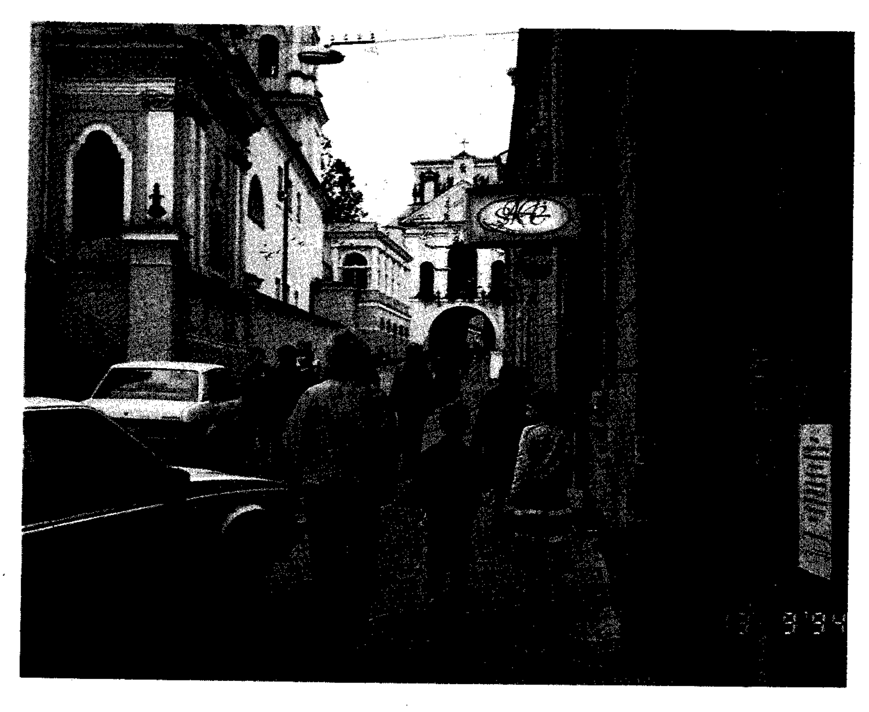
وكان الطعام جيداً، والنظافة والذوق في المطعم هما الغالبين.

جولة في لتوانيا :

ستشمل هذه الجولة أنحاء من العاصمة وخارجها ، ولن تقتصر على العاصمة فيلونس.

بدأت الجولة في التاسعة والنصف على حافلة صغيرة مستأجرة وهي جديدة جيدة من صنع ألماني، وقد استأجرها لنا الأخ (أدس ياكوبا وك) رئيس المجلس التتاري في لتوانيا سابقاً ، وهو الذي ذكرته قبل قليل.

كانت المشكلة المتجددة أن الأخ (أدس) لا يعرف لغة نعرفها إلا قليلاً من الإنكليزية، ولم يحضر معه من يعرف العربية مع أننا أبدينا له أمس رغبتنا في ذلك، فذكر أنه يوجد في لتوانيا بعض الطلاب العرب الذين يعرفون اللتوانية.



شارع في المدينة القديمة في فيلونس

تركنا الحي القديم من المدينة الذي يقع فيه فندقنا (فندق استوريا)،

ويكاد يكون الوحيد من أحياء المدينة الذي يضم منازل وأبنية متلاصقة، أما الأحياء الأخرى، وبخاصة في الضواحي، فإنها تكون متباعدة ويفصل بينها وبين قلب المدينة القديمة وبينها وبين الأحياء الأخرى مساحات واسعة من الخضرة والأشجار الكثيفة.

ومع أن العاصمة (فيلونس) لا تعتبر من المدن الكبيرة إذ لا يزيد سكانها على ٧٠٠ ألف نسمة من مجموع سكان لتوانيا البالغ ثلاثة ملايين ومائة ألف نسمة، فإن فيها وسائل متعددة من وسائل النقل العامة جرياً على عادة الشيوعيين في البلاد التي حكموها، يقصدون بذلك التعويض عن عدم وجود السيارات الخاصة لدى المواطنين.

فـ (الترولي باص) وهو الحافلة التي تسير بالكهرباء عن طريق سلك كهربائي ضخم ممتد في كل الشوارع التي تسير فيها، إلى جانب الحافلات المعتادة وعربات الترام التي هي قطار كهربائي قصير يسير على قضبان مثبتة في الشوارع كقضبان السكك الحديدية، وتغذيه الكهرباء عن طريق سلك قوي ممتد فوقه مثل الحافلات الكهربائية تقريبا.

هذا إلى جانب سيارات الأجرة الصغيرة المعتادة.

وشوارع القسم القديم من المدينة ضيقة إلا أنها ذوات أرصفة جيدة، ويكثر فيها المشاة الذين هم الأوروبيون الذين نعرفهم، إلا أنهم يتميزون بكثرة الشقرة فيهم، وبرشاقة ظاهرة في نسائهم بالنسبة إلى جيرانهم من الروس، وتغلب عليهم جميعاً مسحة الفقر في الثياب وفي نضارة الوجوه.

جمعية التتار المركزية:

ومعنى ذلك أنها جمعية إسلامية، لأن التتار كلهم مسلمون، ولا يوجد في البلاد من سكانها الأصلاء من هم مسلمون من غير التتار، إلا أنه حدث بعد الاحتلال الروسي للبلاد في عام ١٩٤٠م أن حضرت من الاتحاد أعداد قليلة من المسلمين من بلاد ما وراء النهر ومن منطقة القوقاز، غير أن بعضهم عاد

إلى بلاده بعد أن استقلت لتوانيا عن الاتحاد السوفيتي، والذين بقوا هنا عددهم قليل، ويعتبرون من غير المقيمين إقامة طويلة، ولذلك لا يخدمون العمل الإسلامي لأن أكثرهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام إلا أنه غير النصرانية.

وقفنا عند مكتب الجمعية في شارع فوست وهو في حاشية الجزء القديم من المدينة، وقد التقطت صورة ظهرت فيما سيارات كثيرة خلاف العادة، ولكنها كانت واقفة أمام مصرف تجاري خاص وشركة أخرى خاصة أيضاً، بمعنى أنها لا تملكها الدولة، والشارع محاط بأشجار عالية، وتكاد تعصر جدرانه من فرط الندى فيها، حتى إن بعض أصولها قد ركبه لون أخضر مثل لون الطحلب من كثرة ما يقع عليه من الماء، لأن الموسم الآن هو موسم الأمطار في هذه البلاد.



شارع فوست في فيلونس

دخلنا إلى مقر (الجمعية التتارية)، وتشغل شقة من أربع غرف وغرفة

أخرى من شقة أخرى مجاورة، قد اتخذوا من إحدى الغرف مصلى، وقد فرشوها ببساط موحد سميك (موكيت) وعلقوا عليها لوحات كلها عربية، فليس فيها من لغة أخرى، وذلك أنهم قد نسوا لغتهم التتارية التي هي لغة المسلمين، ولا يحبون أن يعلقوا لوحات باللغتين المستعملتين هنا وهما لغة (لتوانيا) اللغة الوطنية، واللغة الروسية لغة الثقافة والتعليم.

على إحدى اللوحات كتبوا (البسملة): بسم الله الرحمن الرحيم بخط كبير، وإن كان لا يوجد فيهم من يقرؤه، أو يعرف حرفاً من العربية، وعلى الأخرى الآية الكريمة: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وأخرى عليها صورة الكعبة المشرفة.

وجدنا في الجمعية أخاً تركياً هو طالب تركي حضر إلى هذه البلاد لدراسة اللغة الروسية في الجامعة، فكان يحضر إلى الجمعية ليقوم بتعليم الذين يحضرون إلى الجمعية من المسلمين مبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

ومع أن اللغة التتارية التي كانت لغة هؤلاء الإخوة قد نسيت؛ بل محيت من البلاد فإنها لا تزال حية في مناطق أخرى من الاتحاد السوفيتي السابق مثل جمهورية تتارستان، وبلاد القرم إلى جانب مناطق أخرى من مهاجر أولئك القوم، وهي لغة مشتقة من اللغة التركية القديمة، فهي شقيقة للغة التركية المحكية الآن في جمهورية تركيا، ويمكن للأتراك أن يتفاهموا مع التتار بها بصعوبة أول الأمر، ولكن هذا الأخ التركي يدرسهم باللغة الروسية التي تعلمها من الجامعة، واسمه (موسى قنزآي).

أفادنا هذا الأخ في الترجمة ما بيننا وبين الإخوة الموجودين في الجمعية وهم ثلاثة، فتباحثنا معهم في شؤون المسلمين في البلاد، فذكروا لنا أمراً محزناً من عدم إقبالهم على تعلم الدين الإسلامي رغم كون الإسلام يعتبر بالنسبة لهم بمثابة الهوية والتاريخ المشرق، فمثلاً ذكر أحد الإخوة العاملين في الجمعية أن عدد الذين يصلون صلاة الجمعة معهم يتراوح ما بين ١٠ أشخاص

وخمسة عشر، وعلق أحدهم على ذلك بقوله: إنه يبلغ عدد التتار في العاصمة (فيلونس) ثلاثة آلاف، ولكننا لم نر منهم إلا خمسمائة، أما البقية فإن تأثير ستمائة سنة من القهر ومحاربة الدين في نفوسهم كان آخرها الحكم الشيوعي الذي حارب الدين بغير هوادة قد أنساهم دينهم، ومعه لغتهم وعاداتهم الإسلامية.

ثم دخلنا غرفة أخرى فيها فصل دراسي مكتوب عليه بالحروف اللاتينية.

وكذلك رأينا في مكتب الجمعية في الشقة لوحة بالحروف اللاتينية تمثل اسم الجمعية: (لتوانيا تتار كوميتي).

ومما يذكر أن الحروف التي كانت تستعملها دول البلطيق قبل الحكم الروسي الذي أسموه السوفيتي هي الحروف اللاتينية، وقد أبقاها الروس ولم يغيروها كما فعلوا بالبلدان الإسلامية في آسيا والقوقاز بل وأوروبا في باشكيريا وتتارستان حينما غيروا الحروف العربية التي كانوا يكتبون بها لغتهم إلى الحروف الروسية، حتى صاروا لا يعرفون منها شيئاً الآن.

وقال أحدهم: إنه ربما كان السبب في ذلك أن السكان هنا هم من الأوروبيين، فلم يرد الروس استثارة الناس في أوروبا ضدهم، وأنهم لم يكونوا واثقين بأن أهل دول البلطيق سيبقون معهم كما حدث هذا بالفعل الآن.

ويدرس في الفصل الدراسي الذي أسموه مدرسة ٢٥ طالباً موزعين على غرفتين، ذكر الأخ (موسى قنزآي) أن شبابهم فيهم نشاط على تعلم الدين وتجاوب لا يوجد عند الكبار.

خرجنا من (جمعية التتار اللتوانية) بعد أن طلبنا منهم أن يحضر إلينا في الفندق رئيس الجمعية وخازنها وشخص أو شخصان منها؛ لأننا سوف ندفع إليهم مساعدة مالية رمزية عاجلة عرفنا أنهم في أمس الحاجة إليها، لأن

المكان مستأجر يدفعون أجرته ما يعادل (٢٥٠) دولاراً أمريكية في الشهر، وقد تخلف عليهم من الأجرة أربعة شهور لم يدفعوها لعجزهم عن ذلك.

بحثنا معهم معاملة أهل البلاد حكومة وشعباً للمسلمين الذين يسمونهم هنا بالتتار أهي معاملة معتادة أم جيدة، أم توضع العراقيل أمامهم؟ فأخبرونا أنها جيدة، وألا أحد يتعصب ضدهم الآن، وأن علاقتهم بالليتوانيين أهل البلاد ممتازة لأن الليتوانيين يحسون بالقرب منهم لكونهم حاربوا معهم الروس والألمان في التاريخ.

ودعنا هؤلاء الإخوة المحاويج الذين تشمل حاجتهم كل الميادين المهمة في المحافظة على إسلامهم، فهم محتاجون للمال الذي يمكنهم من إيجاد مقر لجمعيتهم، وبناء مسجد في العاصمة لهم، ومدرسين لمدرستهم، كما تشمل أيضاً الحاجة الشديدة للمعرفة الإسلامية.

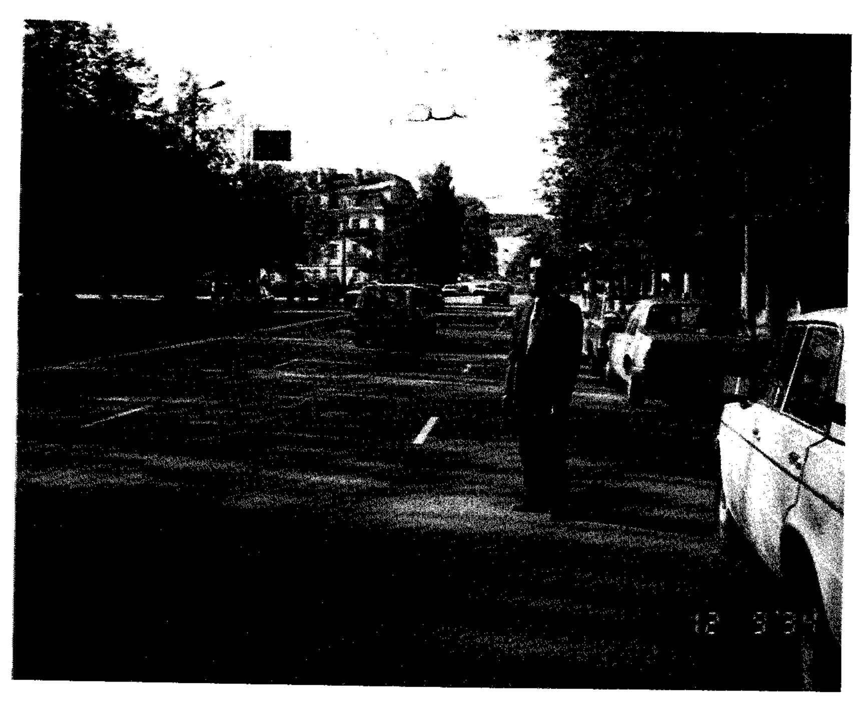
ولا شك في أنه لولا شدة شكيمتهم وتمسكهم بدينهم ولو كان تمسكاً اسمياً لما بقي على دينه منهم أحد، ولكانوا ارتدوا كما ارتد أناس من أمم أخرى لم يتعرضوا لمثل ما تعرضوا له من الضغط وانقطاع الصلة بينهم وبين العالم المسلم في الحواضر الإسلامية.

وجلت على قدمي في المنطقة المحيطة بالمقر، فوجدتها مهملة فيها خرابات كثيرة، ونفايات مبعثرة رغم كون الشارع الذي بجانبها لا بأس به، وذلك لكون البلدية تعتني به وتهمل غيره.

الشارع الذي تتنازعته الأسماء:

أوقفنا سيارتنا في شارع رئيسي من شوارع العاصمة، ربما كان أهم شارع فيها، ولذلك أسماه المحتلون للبلاد بأسماء زعمائهم، فكانوا أسموه إبان الاحتلال الألماني (شارع هتلر)، ثم لما جاء الاحتلال السوفيتي الشيوعي تغير اسمه إلى (شارع لينين)، وعادة الشيوعيين أن يسموا أهم شارع وأهم ميدان في المدينة التي يسيطرون عليها باسم لينين.

وعندما رحل الروس واستقلت البلاد أسماه المواطنون هنا باسم وطني هو (قيت مينا).



المؤلف في الشارع الرئيسي ذو الأسماء في فيلونس

وكان الغرض من الوقوف في هذا الشارع هو أن يذهب الإخوة إلى سفارة (لاتفيا) للحصول منها على سمات الدخول التي نحتاجها؛ إذْ مخطط رحلتنا أن تكون إلى (لاتفيا) بعد (لتوانيا).

وبعد ذلك نذهب إلى (إستونيا) بإذن الله.

والحديقة الجميلة:

هذا الشارع واسع وجميل إلا أن السيارات تتلاقى فيه، وقد فصلوا بينها بخط أبيض.

وفي شرقي الشارع حديقة نضرة واسعة جداً مع أنها في حاشية القسم

القديم من المدينة، وقد أشرقت الشمس على أشجارها وأزهارها في يوم هو أشبه بأيام الربيع المبكر عندنا من ناحية البرد، وهو عندهم من أيام الصيف الجميلة.

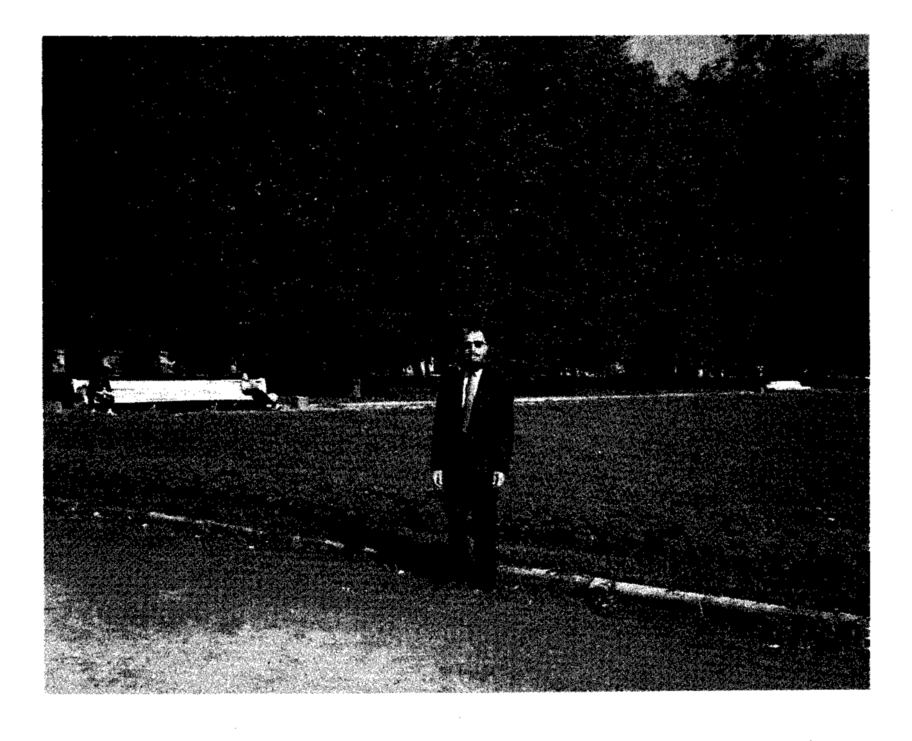
وفي هذه الحديقة مقاعد كثيرة للمنتظرين والمتمتعين بالهواء والمناظر الجميلة ذات العمر القصير في هذه البلاد الثالجة في الشتاء، وحمامات - جمع حمامة - ذات لون رمادي منقط بأسود، وزهور متفتحة تدعو الباحثين عن الجمال إلى الاستقبال ولكن أين هم منه ؟

إنهم من شظف العيش في شغل شاغل عنها وأمثالها، فلم أر على مقاعد الحديقة إلا مسنين يتشمسون، وزوجاً من الشبان ربما كانا من السياح الأوروبيين.

الغراب في الجنة:

وما شبهت هذه الحديقة وما اعتبرتها إلا قطعة من جنة أرضية قد أشرقت شمسها، وصفت سماؤها، ونضرت زهورها في جو مفعم بالجمال، إلا أنني لم أر فيها من الحيوان أو الطيور إلا أسراباً من الغربان القبيحة، رأيتها تتجنب المنطقة التي فيها تلك الحمامات المنقطة، أو هكذا خيل إليّ.

أما الواقع فإن وجود الغراب بلونه الأسود المائل للخضرة وسحنته الغريبة، ومنقاره القبيح في النظر، وبصوته القبيح في السمع، في هذه الجنة التي تفارقه في كل شيء هو أمر غريب، وربما كانت هذه الغربان من الطيور المهاجرة - إن كانت الغربان تهاجر - قد وقفت في هذه الأرض البلطيقية لتستريح من عناء الطيران والترحال إلى حين، إذْ لاحظت بعد ذلك أن الغربان كثيرة في منطقة البلطيق كلها وكأنها هي لها كأرض الهند التي لا يوجد في العالم كله أرض تحفل بالغربان مثلما تحفل بها حتى إنها تكون في المدن الكبيرة ظاهرة تقع على الأبنية، وفي الشوارع الجانبية، والأماكن المتسعة، وهي هناك منسجمة مع بعض المناظر أما هنا فإنها نشاز من النشاز.



المؤلف في الحديقة في قلب فيلونس

واسم الحديقة (لان لوكيشكيو)، وهي على اسم أحد المسلمين التتاريين اسمه (لوكا)، وهو بطل حربي أبلى في الدفاع عن البلاد اللتوانية بلاء حسناً، فأكرموه بإطلاق اسمه على هذه الحديقة، وكان اسمها قبل الاستقلال: "حديقة لينين".

وقد توفي ذلك البطل المسلم قبل عدة سنوات، ولم يعرف المرافقون تاريخ وفاته بالضبط.

إلى مدينة كوناس:

مدينة (كوناس) هي المدينة الثانية بعد العاصمة (فيلونس)، يبلغ عدد سكانها (٥٥٠) ألف نسمة، وتقع على بعد ١٠٧كيلو مترات جهة الجنوب من العاصمة، وفيها رئيس جماعة التتار، وفيها المسجد الوحيد في كل لتوانيا

المبني على طراز المساجد المعتادة.

عند الخروج من المدينة مررنا بأناس مزدحمين على مكان علمت أنه السفارة الألمانية، وهؤلاء الناس يريدون منها أن تمنحهم سمة الدخول إلى ألمانيا، وذلك لما يعانيه الناس هنا من تخلف اقتصادي، بل من عوز وحاجة نتيجة للحكم الشيوعي الذي ران على العباد مدة خمسين سنة.

وقد خرجنا من نطاق المدينة بسرعة لكونها ليست واسعة من الناحية التي خرجنا منها، ورأينا فيها محطة الكهرباء تولد فيها الطاقة الكهربائية بالوقود المعتاد، مع أن البلاد فيها أنهار عديدة، لا شك في أنه يمكن أن تولد الكهرباء منها، إذ لا تعدم أن تكون فيها مساقط للمياه، وإن كان ذلك يحتاج إلى جهد ومال.

غادرنا المدينة مع طريق مزدوج جيد هو الوحيد الذي رأيته من الطائرة.

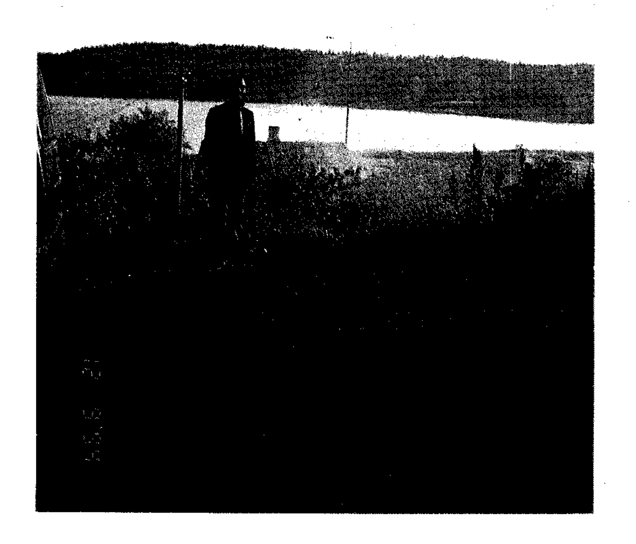
ومع ذلك فإن الجزيرة التي تفصل بين طريق الذاهب والآيب فيه هي مهملة ليست فيها أشجار مهذبة ولا زهور، ولا أي مظهر من مظاهر العناية وإنما فيها حشائش وحشية نامية على المطر.

نهر ناموناس:

مررنا بنهر كبير اسمه (ناموناس)، وقد رأيته من الطائرة قبل الوصول إلى المطار، وهو غير النهر الذي تقع عليه العاصمة، ذاك نهر آخر اسمه (نارس)، هذا إضافة إلى مئات البحيرات، بل آلافها، وإلى الأمطار الغزيرة التي تسقط عليها في الصيف، والثلوج التي تجللها في الشتاء، فهي إذاً لا تشتكي جدباً في الأرض ولكن الجدب في العقول، ويقول أهلها: إنهم سوف يلحقون بالركب العالمي الناهض، ولكنهم يحتاجون إلى وقت تستعيد فيه بلادهم عافيتها بعد الشيوعية.

ومن ذلك أننا مررنا بمصنع للورق مشترك ما بين لتوانيا وأمريكا، وذلك

لكون البلاد تحتوي على ثروة من الغابات التي تنمو الأشجار الصالحة لصنع الورق منها.



المؤلف بالقرب من إحدى البحيرات في لتوانيا

ثم استمر الطريق في منطقة خالية من المنازل، ولا يشاهد المرء منها إلا الغابات الكثيفة أو بحيرة صغيرة.

وقال الأخ (أدس): أكثر القرى هنا محتفظة بأسمائها التتارية، يريد التي كانت لها عندما كان التتار يسيطرون على المنطقة ضمن إمبراطورية (آلتون أوردو) الإسلامية التي كانت تسيطر على أكثر روسيا في ذلك الوقت

وروسيا البيضاء، ودول البلطيق، وبولندا، وأوكرانيا، أو أكثر هذه المناطق، ويقع مركزها على نهر (إيدل) الذي يسمى في كتبنا العربية (إيتل) بالتاء، وهو عند كتابنا الجهلة المقلدين (الفولقا) أخذوا تسمية النهر هذه من الأوروبيين المحدثين، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن اسمه الذي كان يعرف به عند أسلافنا من المؤرخين المسلمين.

المنازل حول البحيرات:

مررنا ببحيرة كبيرة نسبياً، فرأيت حولها مساكن ريفية عديدة أكثرها تقع على شاطئها، فصح عندي ما لاحظته عندما رأيت هذه البحيرات من الطائرة عند بعضها منازل، وقال الأخ (أدس): إن ملاحظتك صحيحة، وهذه عادة قديمة للناس هنا أن يبنوا منازلهم على شواطئ البحيرات ولو كانت صغيرة.

شجرة نابليون:

مر الطريق بشجرة وحيدة ضخمة واقعة في الجزيرة التي تفصل بين طريق الذاهب والآيب منه، ليس بجانبها أية شجرة أخرى في الجزيرة، وهي لموقعها وضخامتها لافتة للنظر، فسارع الأخ (أدس) يقول: إنها (شجرة نابليون).

وأوضح ذلك بقوله: إن (نابليون) إمبراطور فرنسا هو الذي غرس هذه الشجرة عندما وصل إلى هذه البلاد قاصداً غزو روسيا، وقد أبقى الناس على هذه الشجرة لأنها شجرة تذكارية.

كان يقول هذا الكلام والسيارة تعدو مبتعدة عنها في الطريق، فقلت له: إنني أود تصويرها فهي تستحق ذلك ولو لم يكن في الأمر إلا كونها شجرة معروفة المولد.

فتاريخ غرسها معروف، ولكن كنا أبعدنا عنها فقلت له: إنني أرجو أن تقف بي عندها عندما نعود من الطريق ظناً مني أننا سنعود مع الطريق نفسه إلى

العاصمة.



الطريق بين فيلونس وكوناس

فسكت وهو رجل صموت أبغض ما عليه الفضول وكثرة الأسئلة التي تتطلب أجوبة حاسمة، ومثل طبيعته لا تناسبني، فأنا أحب الرفيق الثرثار الذي أحس أنه يجد متعة في الكلام والإجابة على الأسئلة.

ولم أصور هذه الشجرة لأننا عدنا من طريق آخر غير هذا الطريق.

ولكنني وجدت فيه ما يذكر بنابليون؛ إذْ صورت منه مما أسموه قبعة نابليون أو (طاقية نابليون)، وسوف أذكرها فيما بعد إن شاء الله.

واعترض الطريق جسر فوقه للسيارات التي تحتاج إلى قطعه، وهو قديم بال عجبت من كونهم يسمحون للسيارات أن تسير فوقه، وربما كانوا يحصرون ذلك بذوات الأوزان الخفيفة من السيارات.

ومررنا بحقل كبير من حقول القمح الحصيد الكبيرة المملوكة للدولة، فيها بقر كثير وسط منطقة خصبة حافلة بالمراعي، وقال الأخ (أدس): لدينا قمح وبقر كثير، نستطيع تصديره للسعودية، كما نستطيع أن نصدر اللحم والجبن والزبد، وقلت له: إن بلادكم غنية بالمراعي، واعتقد أنها لا تقل في هذا الأمر عن هولندا والدانمارك إن لم تفقهما في هذا الأمر، ولكنكم فيما يتعلق بالانتفاع من هذه الثروات دونهما بكثير.

هذا والريف أخضر خضرة كثيفة يرى المرء فيه قطعاً من الغابات الكثيفة التي كانت تجلل الأرض وقطع أكثرها من أجل الحقول أو المصانع، والمنظر جميل فالأرض سهول في ارتفاع قليل وانخفاض مثله، ولا جبال أو وديان عميقة، ولكنها خالية تماماً من التجميل والتحسين مع أن التجميل بغرس الزهور - مثلاً - لا يكاد يكلفهم شيئاً؛ لأن هناك أنواعاً من نباتات الزهور لا تكلف أكثر من غرسها ثم تعهدها بالتهذيب والتشذيب، وإلا فإنها لا تحتاج إلى السقي في هذا الجو الندي الخصب من فصل الصيف، حتى الطريق لم يزرعوا زهوراً في وسطه ولا في حواشيه، بل هو خالٍ حتى من الشجر الذي يغرس عليها في العادة، ماعدا بعض الأماكن التي يصادف فيها أن يخترق الطريق غابة من الغابات، فإن أشجارها تقع على جانبيه بطبيعة الحال.

وأما السيارات التي نراها الآن في الطريق فإنها من الشاحنات الروسية المعتادة ذات اللون الأخضر والأزرق وهي ثقيلة الوزن، لم تصمم من أجل أن ترضي ذوقاً من الأذواق، وإنما من أجل أن تحمل الأثقال، وأما سيارات الركوب الصغيرة فإن معظمها من سيارات (لادا) الصغيرة من صنع روسي، التي إذا رأيتها لم تفرق بينها وبين سيارة (فيات) الإيطالية القديمة، إلا أنها لم تطور إلا بما زادها قوة وصبراً على تحمل وعورة الطرق وقسوة الجو، وأما ما يكون متعلقاً بالترف وتسهيل الركوب فإنه لم يدخلها.

أما اللافتات التي تشير إلى أسماء القرى والمدن التي تقع على الطريق أو

على طرق متفرعة منه فإنها كثيرة، وهي مكتوبة بحروف لاتينية يسهل على مثلنا قراءتها بخلاف اللافتات التي تكون على الطرق في روسيا وفيما استولت عليه من البلاد منذ عهد طويل، فإنها تكون بالحروف الروسية المعروفة بهذا الاسم مع أنها سلافية الأصل جاءت إلى روسيا من بلغاريا.

وهي وجميع اللافتات مكتوبة باللغة الليتوانية.

قرية فيافوس:

حاذى الطريق قرية فيها عدة مصانع، وفيها مزرعة لتربية الدواجن اسمها (فيافوس)، وفيها جسر على الطريق للسيارات التي تقطع الطريق جيد، وهي صغيرة متفرقة، من أكثر ما فيها ظهوراً أبراج الأعلاف الضخمة التي يجمعونها في هذا الصيف الأخضر ويدخرونها لشتائهم الأشهب، حيث لا تجد الماشية أي شيء تأكله من العلف إلا ما كان مدخراً، لكثرة الثلج الذي ينزل على أرضهم في الشتاء.

ورأينا أعداداً من الأبقار ترعى في هذه الحقول الخضر غير المسقية إلا من ضرع السماء. كما عبر عن ذلك بعض المتظرفين، وأما المنازل فإنها كلها مسنمة السقوف من أجل أن تنزلق عنها الثلوج ومياه الأمطار.

وعلى ذكر الثلج في الشتاء ذكر الأخ (أدس) بشيء من الاستغراب أنهم أصابهم صيف هذا العام حر شديد غير مألوف، وصلت درجة الحرارة فيه إلى ٤٠درجة مئوية حتى مات أناس من شدة الحر، قال: والعادة أن الحرارة في الصيف تكون في كل عام في حدود العشرين درجة، قال: وفي الشتاء تصل درجة البرودة في المتوسط ٢٠ درجة تحت الصفر.

بلدة الكهرباء:

وكدت أكتبها كما يدل عليه اسمها باللغة اللتوانية، وهو

(الكهربائية) لولا أنني خشيت من الاشتباه بأن تكون بلدة تدار أمورها بالكهرباء، فاسمها (إليكتريناي)، وتقع على يسار الطريق، وقد سميت بهذا الاسم لأن فيها محطة ضخمة لتوليد الكهرباء، بل إن المنطقة التي حولها أصبح اسمها كلها (اليكتريناي) لهذا السبب.

وأكثرها مؤلف من (عمارات) متعددة الطوابق التي اعتدت أن أسميها (العمارات الشيوعية)، وذلك لكونها موجودة في جميع المدن الشيوعية، وهي تتألف من شقق سكنية صغيرة تبنيها الحكومات الشيوعية، وتؤجرها على الناس بأجور رخيصة لأنها وحدها المخولة ببناء المساكن، هذا إلى جانب بيوت منفردة غير متلاصقة في أطرافها.

بلدة ججماري:

واصلنا السر فوصلنا إلى منطقة حقول واسعة قد قطعت منها الغابات تماماً فأصبحت أرضها ذات أعشاب كثيفة، لا شك في أنها لو استغلت مراعي في الصيف والخريف وعلفاً يخزن في الشتاء لأدرت عليهم دخلاً عظيماً، وبدت على أيسر الطريق أيضاً بلدة اسمها: (ججماري)، أعلى ما فيها من الأبنية خزان للماء، وبرج للتلفزة، وتبعد عن العاصمة ٥٩ كيلو متراً، وقد كتبوا بعد أن فارقناها لافتة على الطريق تحدد السرعة في الطريق بـ ١٠٠ كيلومتر.

وكثرت في المنطقة حقول القمح الحصيد الذي حصد بحصادات لا تستقصي حصد القصب، فتترك أكثره أو بعضه في الأرض، فيبدو أصفر اللون، لأن قصب القمح فيه كان متقارباً إلى جانبه ما خالطه من أعشاب ونبات بري.

وقرية بدافنسكي:

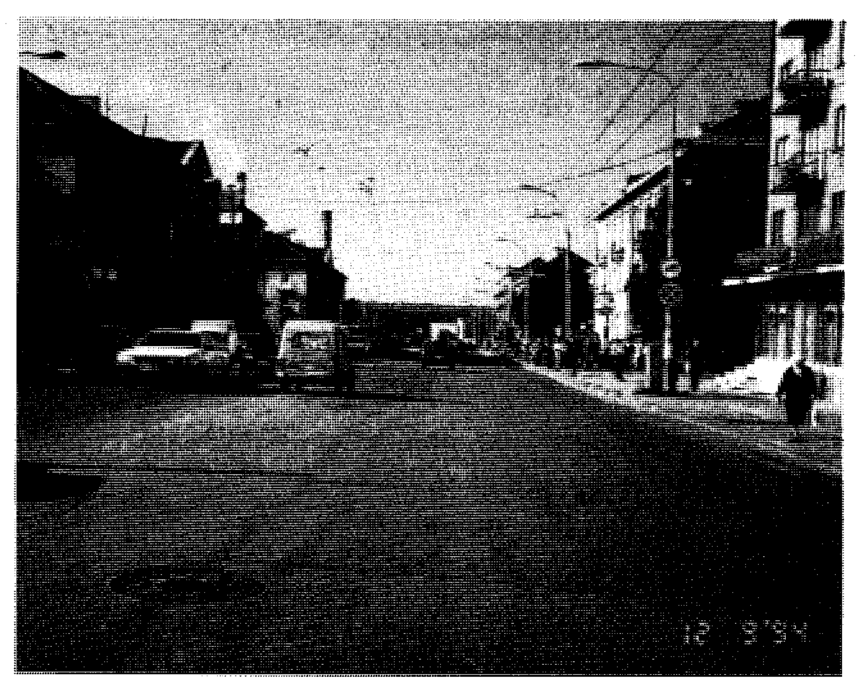
وهي صغيرة ذات بيوت منفردة مسنمة، ولكنها ليست ذات منظر وجيه، ويبدو أنها خاصة لبعض الفلاحين أو العاملين في الريف.

ثم بدأت الغابات بالظهور، ورأينا فيها سيارة قطع الأخشاب من الغابات، وهي تحمل مقص القطع ورافعة قوية لرفع الأخشاب ونقلها إلى الشاحنات.

ثم مر الطريق على جسر فوق نهر غير واسع المجرى، بعده رأينا بلدة صغيرة قائمة على الصناعة، رأينا فيها مداخن عديدة لمصانع ينبعث الدخان.

ورأينا لأول مرة لافتة على الطريق تحمل رسم الشوكة والملعقة علامة على قرب الوصول إلى مطعم، والمطاعم والمقاصف فضلاً عن المقاهي هي أقل الأشياء على الطرق في البلدان الشيوعية.

في مدينة كوناس:



الشارع الرئيسي العام في كوناس

في الحادية عشرة والثلث كنا نعدل من الطريق الذي هو طريق دولي

مستمر لندخل مع نفق من تحته إلى جهة اليسار حيث مدينة (كوناس).

كان أول ما يسترعي الانتباه عند دخولها كثرة الأبنية المتعددة الطوابق المؤلفة من شقق صغيرة.

دخلنا إليها مع شارعها العام، وهو واسع في وسطه مستديرة ليس فيها إلا أعشاب خضر من دون زهور، ووقفنا عند إشارة ضوئية من إشارات المرور الكثيرة فيها، مثلما هي كثيرة في العاصمة، وذلك لقلة الأنفاق والجسور في المدينتين.

وكان مما استرعى انتباهي منظر عجائز شقر الشعور قد جلسن في شمس الصيف يبتغين الدفء مع أن الجو غير بارد، ولكنه شعورهم بأن أيام الدفء والشمس معدودة، لذلك يريدون أن يغتنموا الجلوس فيها.

والشارع طويل لبثنا فترة نسير فيه، وليس فيه أرصفة، وإنما غرسوا في مكانها من جانبيه أشجاراً في صفوف منتظمة متناسقة، وأكثرها غير عالية مما يشعر بأنها ليست قديمة الغراس.

ومن المواصلات العامة التي رأيناها فيها الحافلات الكهربائية المعروفة في مصر بالترولي، ولا توجد في بلادنا.

ثم عدلنا من هذا الشارع الرئيسي جهة اليسار مع شارع جانبي تشغل أحد جانبيه حديقة واسعة تنتصب فيها الأشجار الباسقة.

ولاحظت كثرة السيارات الصغيرة في المدينة، وأغلبها من سيارات (لادا) الروسية، ولكن يلاحظ المرء وجود بعض السيارات الألمانية فيها، على قلة.

المسجد الأبيض:

وصلنا فجأة إلى مسجد عالي المنار، واضح الشعار، يسمونه (آق مسجد) يعني المسجد الأبيض؛ لأن (آق) هي أبيض بالتتارية التي هي مشتقة من التركية، وهي كانت لغة المسلمين في هذه المنطقة في السابق.



المسجد الأبيض في كوناس (تصوير المؤلف)

وقفنا عند المسجد الذي يقع في حاشية حديقة مظلمة لضخامة أشجارها وتقاربها.

شارع التتار:

أعجبنا منظر هذا البيت من بيوت الله في هذه البلاد التي كان حكمها المسلمون، وانحسر عنها وعن غيرها حكمهم، وقل نفوذهم قبلما يقرب من ستمائة سنة تناوب عليها المالكون والمحتلون، حتى وصل الأمر إلى أسوأ احتلال هو الاحتلال الروسي الشيوعي المبنى على الإلحاد والانحلال من الدين كلية.

وعجبنا أكثر عندما علمنا أن الشارع الذي يقع عليه المسجد اسمه

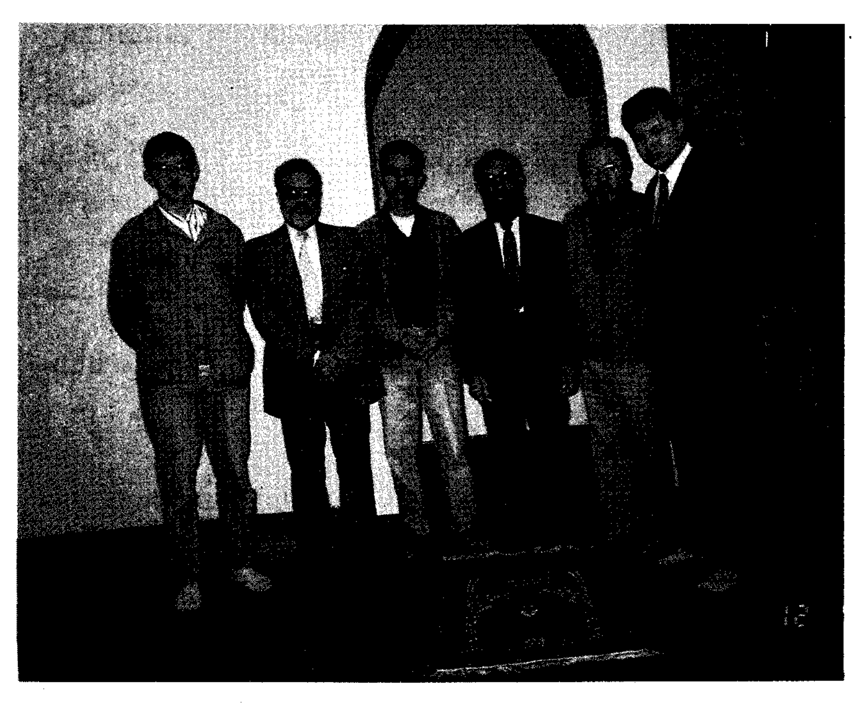
(شارع التتار)، ولفظه بلغتهم (تتار يسكابوليسا)، وكلمة (التتار) هنا هي مرادفة لكلمة مسلم كما سبق، فكأن معنى اسم الشارع (شارع المسلمين)، ولكن اسم الشارع لم يشفع لهذا المسجد الأبيض (آق مسجد) عند الشيوعيين، فصادروه من أهله المسلمين، واتخذوه مستودعاً ثم حانوتاً يبيعون فيه ما تبيعه الدولة الشيوعية على الشعب من مباحات ومحظورات، إلى أن استعاده المسلمون قبل ٤ سنوات، فكان عندما استعادوه يحتاج إلى إصلاح وترميم، وهم أعجز عن ذلك.

حديث في المسجد:

وجدنا في استقبالنا الأخ (يونس رضوان) رئيس الجمعية الإسلامية في (كوناس)، وهو من أهلها، وينطقون باسمه: (يوناس رزوانا فيتشيوس)، والأخ رامز ياكوباي من أهل هذه المدينة أيضاً، ومعنى اسمه رمضان يعقوب، وهما جميعاً من التتار، كما وجدنا الأخ خالد طقش، وهو فلسطيني شاب حضر إلى هذه البلاد قبل ٤ سنوات وتزوج امرأة من أهلها، وافتتح مخبزاً بدأ بتقديم الخبز العربي، وقد صار له رواج جيد؛ بحيث إنه وظف عنده عاملين من أهلها، ويعرف الأخ خالد لغة لتوانيا معرفة جيدة، لذلك كان وجوده جد مفيد لنا من ناحية الترجمة، ومعرفته بكثير من أمور البلاد، وهو متدين محب للثقافة الدينية.

وداخل المسجد غير واسع، وفيه شرفة في مؤخرته، وهي جهة الشمال لصلاة النساء، ومحرابه ليس مزوقاً ولا معتنى به، ولا شك في أن سبب ذلك رقة الحال عند الإخوة المسلمين في الوقت الحاضر، كما أن فيه منبراً خشبياً قصيراً، وكراسي للمسنين الذين يشق عليهم السجود لصعوبة ثني المفاصل عليهم، ولاحظت أن مثل هذه الكراسي موجودة في كل مساجد المناطق الباردة، ولا توجد في المناطق المعتدلة أو الحارة، ومرجعها بلا شك هو الأثر السيئ للتعرض للبرد باستمرار على مفاصل الرجلين.

ونوافذ المسجد من الزجاج الملون.



في محراب المسجد الأبيض في كوناس مع يونس رزوانوفيتش رئيس الجماعة الإسلامية التتارية ومروان الذيب وثلاثة من المسلمين

وحديث عن المسلمين في كوناس:

وكانت بعد ذلك جلسة مريحة على مائدة في شرفة المسجد، ومصدر الراحة فيها هو الوصول إلى الإخوة المسلمين في المدينة عن طريق زيارة جمعيتهم والتحدث مع رئيسها والمسؤولين فيها، إلى جانب الأخ العربي خالد طقش الذي صار يترجم بيننا بسهولة.

بينما كان الإخوة في الجمعية منهمكين في إحضار مائدة الشاي التي اشتملت على العسل اللتواني المميز المحلي، وعلى الجبن والبسكويت والفطاير التي عملتها الأخوات المسلمات إذ كانوا على علم بزيارتنا لهم منذ البارحة

كان الحديث يدور عن الإسلام والمسلمين في المدينة، فكان خلاصته أن المسلمين هنا هم من التتار الذين لم يبق لهم من مقومات الإسلام إلا اسمه، وصدق فيهم الأثر: (يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه)، وبالنسبة إليهم فإنه لم يبق لديهم من القرآن حتى رسمه.

وعدد المسلمين التتار في (كوناس) ألف مسلم.

وهناك مسلمون آخرون غير التتار جاؤوا في أول الأمر في عهد الاتحاد السوفيتي أي أثناء احتلاله لتوانيا، ويصل عددهم إلى ١٠٠مسلم.

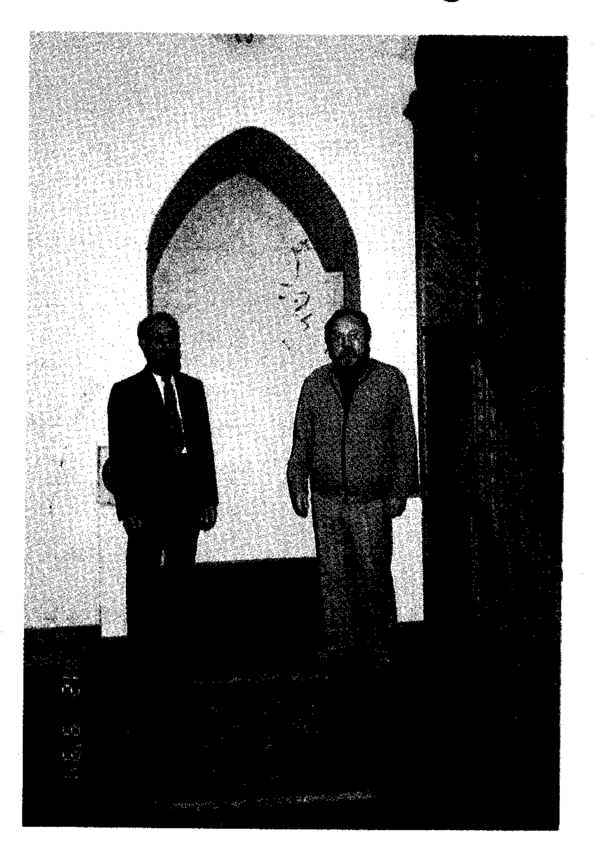
أما عدد العرب المسلمين في المدينة فإنهم ذكروا أنه يصل إلى ١٨٠، معظمهم من الطلاب الذين يدرسون الطب والهندسة، وقد اختاروا هذه البلاد للدراسة لرخص الدراسة فيها وقلة نفقاتها.

كرروا علينا ما فهمناه من قبل، وهي أنهم فقراء عاجزون عن الإنفاق على المسجد والمدرسة الملحقة به، فمن أين رمموا المسجد ؟ ذكروا أنهم حصلوا على نفقات ترميم المسجد من الحكومة في عام ١٩٩٠م، وذلك إبان الفرحة التي عمت البلاد بزوال الحكم الشيوعي، وأما الآن فإنها لا تقدم إليهم ولا لغيرهم أية مساعدة.

وذكروا أنهم لم يتصلوا بأي من المؤسسات الإسلامية التي تساعد الجمعيات الإسلامية مثل رابطة العالم الإسلامي، ولذلك لم يتسلموا أية مساعدة من الخارج رغم حاجتهم الشديدة إلى ذلك.

والسبب في هذا أنهم لا يعرفون كيف يتصلون بتلك المؤسسات، بل إنه ليست لديهم أي معرفة عنها، وعندما عرفوا أخيراً عن طريق بعض الطلبة العرب صاروا يتهيأون له ولم يرسلوا شيئاً بعد، فأخبرناهم عن كيفية الاتصال بالرابطة وغيرها، وقلنا لهم: إننا اطلعنا على حالهم، ويمكنكم أن تستشهدوا بزيارتنا لكم إذا كتبتم لأية جهة لأن معظم المؤسسات التي تعمل في حقل

مساعدة المسلمين في الخارج تتصل بالرابطة وتتبادل معها المعلومات.



المؤلف مع الأخ يونس رزونوفيتش رئيس الجماعة التتارية الإسلامية في كوناس في محراب المسجد الأبيض

وقد شكوا من أن المسجد يحتاج إلى نفقات التدفئة الضرورية في الشتاء، وهي غالية بحيث يحتاج المسجد إلى (٨٠٠) دولار أمريكي في السنة، ولا يمكن اللبث في المسجد بدون التدفئة لشدة البرد في الشتاء.

كما ألحوا على وجوب إيجاد داعية متفرغ يعرف اللغة اللتوانية حتى يستطيع أن يفهمهم أمور دينهم، ويبقي في المسجد يقدم المعرفة الإسلامية لمن يطلب من المسلمين ذلك.

فقلت لهم: إننا في رابطة العالم الإسلامي على استعداد لأن ندفع راتب الداعية المذكور إذا وجد، ويمكن إذا قدمتم لنا أوراقه الآن أن يبدأ العمل فوراً ونبدأ نحن بصرف راتبه فوراً أيضاً، فذكروا أن مثل هذا الداعية لا يوجد.

فقلت لهم: إنه يمكنكم أن تبحثوا عمن حصل من أبناء المسلمين في هذه البلاد على شهادة الثانوية من معهد إسلامي أو مدرسة مثل معهد الإمام البخاري في طشقند، وسوف نصرف له مكافأة مناسبة لقاء تفرغه للدعوة حتى إذا وجد منكم أو من غيركم ممن يعرفون اللغة اللتوانية، وحصلوا على شهادة من إحدى كليات الشريعة أن يعين في حينه داعية رسمياً.

فذكروا أن هذا أيضاً لا يوجد، وأشاروا إلى الأخ الموجود معنا وهو (رافى ياكوبا) وقالوا: إنه يدرس الآن في معهد ثانوي إسلامي في لبنان، وإنه قضى معظم وقته السابق في دراسة اللغة العربية، ويرغب في إكمال دراسته.

فقلت لهم: إذا تخرج سوف ننظر في تعيينه عندكم إذا كتبت الجمعية بذلك كتاباً رسمياً للرابطة.

المدرسة الإسلامية:

أرونا مقاعد دراسية في المسجد ذكروا أنها تستعمل فصلاً دراسياً لتعليم مبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية، وأن الإخوة من الطلاب العرب يدرّسون فيها من دون أجر احتساباً للأجر من الله سبحانه وتعالى.

وهنا حضر اثنان من الطلبة العرب، أحدهم لبناني وهو الأخ مروان ديب، والثاني: فلسطيني، وهما يدرسان هنا من أجل رخص تكاليف الدراسة مع أن مستوى الدراسة هنا وبخاصة في الهندسة هو مستوى جيد كما هو معروف.

والأخ (مروان ديب) يسعى الآن مع عدد من الطلاب المسلمين على تأسيس جمعية باسم جمعية الشباب المسلم في لتوانيا، ويسعون من وراء ذلك

إلى أن تسجل رسمياً ، فتكون واسطة لتشجيع العمل الإسلامي في البلاد إضافة إلى كونها ستضم عدداً من أبناء المسلمين هنا ، وقد اجتمعت اللجنة التأسيسية للجمعية واختارت الأخ مروان رئيساً لها كما أخبرنا الحاضرون بذلك.

هذا وقد قدمت مائدة الشاي أخت مسلمة منهم في حدود الستين من عمرها ، نوهوا بأنها قد وقفت نشاطها ، بل حياتها لخدمة المسجد ، فهي تقوم بتنظيفه وترتيبه محتسبة ذلك عند الله من دون أجر.

وقد أعلنا لهم بأننا سوف نقدم لهم الآن إعانات رمزية عاجلة لبعض أوجه النشاط الإسلامي هنا.

كما أعطينا بعض الإخوة العاملين من دون أجر ومنهم الأخت المسلمة مكافأة رمزية عاجلة تقديراً لقيامهم بالعمل، وحثاً لهم على مواصلة العمل في المستقبل.

أرض المركز الإسلامي:

صلينا معهم صلاتي الظهر والعصر جمعاً في المسجد بالنسبة إلينا ، وبالنسبة لهم صلوا الظهر فقط، وقد شرحنا لهم ذلك شرحاً وافياً لكي يعرفوه، ثم خرجنا معهم من المسجد للاطلاع على أرض كانت لهم بجانب من الحديقة الكبيرة التي يقع المسجد ملاصقاً لها ، وذكروا أن هذه الأرض كانت في السابق من أراضي المسلمين مساحتها عشرة آلاف متر، فصادرها الشيوعيون فيما صادروه من أراضي الوقف الإسلامي وغيرها ، وقد تقدموا بطلب إلى الحكومة الوطنية بعد الاستقلال يطلبون فيه استعادة الأرض، فمنحتهم منها أربعة آلاف متر مربع فقط من أجل أن يقيموا عليها مركزاً إسلامياً ، ومدرسة ، أو ما شاؤوه غير ذلك، وهم يشاؤون أن يجعلوه مركزاً إسلامياً يضم مدرسة وأشياء مما يحتاجه المسلمون مثل قاعة المحاضرات،

ومقر الجمعية الإسلامية، ولكنهم لا يستطيعون الآن إلا الأماني، مع أنهم تسلموا وثائق منحهم الأرض من الحكومة مستوفاة، ولو كانوا في بلد ذي اقتصاد حر مزدهر لوجدوا من يبنيها لهم في مقابل أن يستغل بعضها لمدة معينة، أو من يقرضهم ذلك ويتقاضى ما أقرضه لهم من ريعها الذي يتقاضونه منها.

وقد التقطت صورة واضحة للمسجد من الخارج، وهو المسجد الوحيد في كل دول البلطيق الثلاث المبنى بناء جيداً، ولا يوجد غيره مسجد مبنى بالإسمنت أو الحجارة أو الآجر، وإنما توجد بعض المساجد الخشبية القليلة، ومع ذلك كسر الشيوعيون حتى المنارات الخشبية غير المرتفعة لتلك المساجد.

إلى بلدة ريجي:

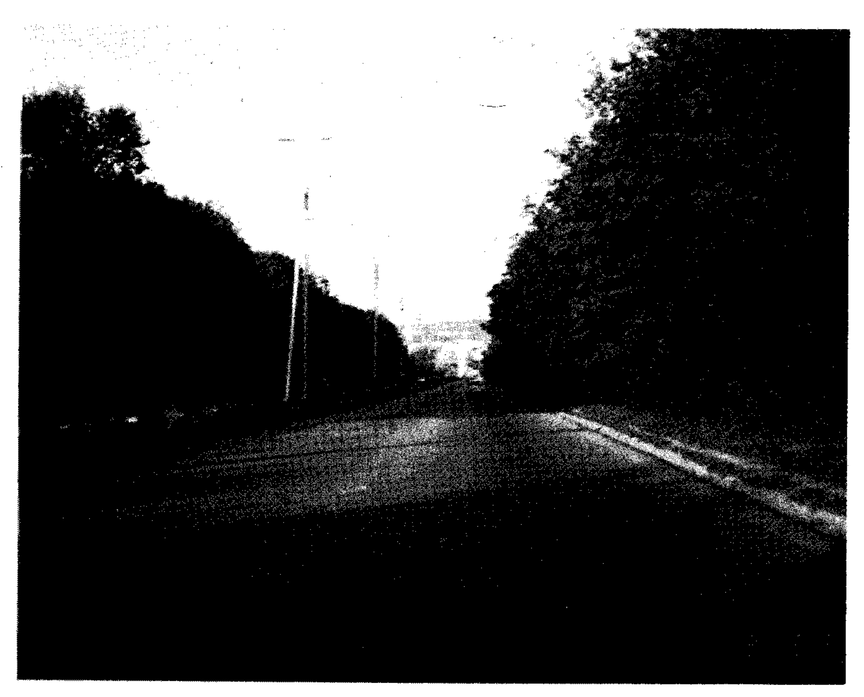
ودعنا الإخوة المسلمين أهل (كوناس)، وأخذنا معنا منهم الأخ (خالد طقش) من أجل الترجمة، وغادرنا مدينة كوناس الجميلة، فاخترقنا ضاحية فيه تشغل الحدائق والساحات الخضر فيها حيزاً واسعاً من أرضها، واجتزنا جسراً كبيراً على نهر (نوموناس) الذي تقع عليه المدينة، وهو نهر متوسط السعة لو كان في مثل المنطقة العربية لعد من الأنهار الكبار، ومع ذلك ذكروا أنه لا ينتفع منه بالشرب ونحوه؛ لأنه نهر ملوث لما يلقي فيه من نفايات المصانع وغيرها، وكل ذلك بسبب كثرة الأنهار والبحيرات ووفرة الأمطار في المنطقة.

والضاحية التي خرجنا منها جيدة تكثر فيها الحدائق والأشجار، ثم خرجنا للريف حيث كثر منظر أشجار التفاح وبعض أشجار الخوخ، وإن لم يكن في الكثرة كالتفاح، وقد أوغلنا في الريف الأخضر الجميل المنظر، ألا أن البيوت فيه هي من الخشب إلا غبر الذي أحاله الزمان، وتقلب الجو إلى لون الرماد.

وأما الناس فإنهم الذين ذكرتهم من قبل، يبدون في منظر الأوروبيين

الشقر إلا أن ملابسهم ومظاهر التغذية على وجوههم ليست كذلك، ويتميزون على وجه العموم بالجمال.

ومن الغريب أن يجتمع مظهر الغنى في الطبيعة واللون الأوروبي الأشقر مع الفقر الذي يكاد يكون مدقعاً، ولكن (إذا عرف السبب، بطل العجب) فقد سيطر الشيوعيون على البلاد بسياستهم التي تعطل المواهب الفردية، وتقضي على الحرية الشخصية، وتحرم الناس من السعادة الروحية عن طريق نشر السياسة الإلحادية، وبذلك أضروا بالبلاد وأفقروا العباد، إلى أن قضي عليهم بالزوال، ولكن بقي الحال في آثارهم التي تتبعهم بإذن الله، وإلا فإن القياس ألا تكون البلاد بهذه المثابة من الفقر، لأنها خضراء غنية بثروتها الزراعية إلى جانب الإمكانات الصناعية، والبلاد واسعة وسكانها قليل بالنسبة إلى مساحتها.



حمرة الخريف لأشجار الطريق بين كوناس وريجي

ومن المناظر الجميلة في هذا الريف أننا مررنا بحقل تفاح أحمر الثمار على خلاف اللون الشائع للتفاح فيها وهو اللون الأبيض المائل للصفرة، وقد أثقلت الثمار أغصانها فتدلت إلى الأرض كأنما لتستريح عليها، ولكن قصر غصونها منعها من ذلك.

وتعددت البحيرات الصغيرة التي مررنا بها، وهي ليست مجرد مناقع للمياه، وإنما هي بحيرات دائمة تغذيها الأمطار في الصيف والثلوج في الشتاء.

بلدة برياني:

وصلنا إلى بلدة اسمها (برياني)، وقد استرعى انتباهي في أبنيتها أن بعضها قد زرعوا على حيطانه عشباً أخضر بدا متسلقاً لها من الأرض حتى أعلى المبنى، ولم نقف فيها، وإنما رأينا المارة فيها على مستوى أنيق من الجمال.

وتقع على نهر (نوموناس) التي تقع عليه مدينة (كوناس)، وأكثر ما رأينا في هذه البلدة هي الساحات الخضر الواسعة.

وفي هذا الجو الشامس الجميل رأينا في الريف مناظر متناقضة، أو هذا هو ما انطبع في ذهني، فالريف الأخضر الريان لم يعدم أن نرى فيه مصنعاً ذا مدخنة عالية تنفث الدخان الكريه اللون، السيئ الأثر، وأسراباً من الغربان تحجل على الطريق وفي حواشيه، ولا أدري عمّ تبحث عنه هنا، ولعلها تبحث عن روث حيوان قد تجد فيه ما تأكله.

وقطعاناً من الأبقار السمينة الحسنة المظهر، وأشجار التفاح الذي لاحظت أن بعضه تركبه ثمار كبيرة، وبعضه ثماره صغيرة، ولا أدري أذلك هو حجمها في الأصل أم أنها سوف تكبر قبل أن يحل موسم البرد فيوقفها عن النمو.

بلدة ريجي :

وصلنا بلدة ريجي، وسمعت بعضهم يقول: (ريجوس)، وذلك في الساعة الثالثة والربع، وتجاوزنا وسط البلد المتفرقة المنازل حتى تبدو جميعها كأنما هي منازل ريفية، قاصدين قرية أو جزءاً من المدينة فيها المسجد الوحيد في تلك المنطقة.

وجدنا في الاستقبال جماعة من الإخوة المسلمين في البلدة على رأسهم الأخ (إيبولتش ماكولا فوفتش) وهو رئيس الجماعة التتارية فيها، وهو تقني كهربائي، وهو الذي نسميه عندنا بالمهندس الكهربائي.



منازل في بلدة ريجي في لتوانيا

كان الإخوة المستقبلون يقفون معنا في موضع بين المسجد ومبنى كبير مرتفع يقابله، ذكروا أن هذا المبنى قام على تبرعات قليلة جمعوها فيما بينهم، وبتبرع من بعض الأثرياء من تركيا، ثم أكملته هيئة الأعمال الخيرية

الأردنية، وكانوا بدؤوا العمل فيه عام ١٩٩٠م، وانتهوا منه في هذا العام.

أما المسجد فإنه من الخشب القوي الموجود بكثرة في المنطقة، والتي فيها أشجار ضخمة قديمة، وهو قديم أقيم قبل أكثر من مائة عام، وبالتحديد عام ١٨٨٩م، ولم يغلق في عهد الشيوعيين، وإنما منعوا إصلاحه وترميمه، وعندما انتهى العهد الشيوعي ظلوا فترة يعملون على جمع ما يحتاجه ترميمه من مال رغم بساطة ذلك لقلة الدخل عندهم.

ومن الطريف في أمر هذا المسجد أنهم ألحقوا به مصلى للنساء واقعاً يسار المسجد خارجاً عنه إلا أن جداره الحائل بينه وبين المسجد قصير فستروه بالقماش لئلا يرى الرجال النساء في المسجد، مع أنهم يرونهن في كل مكان خارجه دون ستر أو حجاب، ومع كون الغالب على النساء اللاتي يؤدين الصلاة أنهن من المسنات.



مسجد بلدة ريجي في لتوانيا، ويرى جذع الشجرة الضخمة التي استعملت في بناء المسجد

وفي المسجد شرفة خلفية، كانت مخصصة في الأصل لتكون مصلى للنساء، ولكنهم فرشوها بالبساط الموحد (الموكيت)، ويصلي فيها الرجال أيضاً.

المنبر القديم:

رأينا في المسجد منبراً من الخشب نوهوا بأن عمره هو ٣٦٨سنة، ولما استفسرنا منهم عن صحة ذلك مع أن المسجد نفسه عمره مائة وخمس سنوات، قالوا: إن هذا المنبر كان موجوداً في مسجد في قرية اسمها (بازور) على بعد ٧ كيلو مترات من قريتهم، وإن المسجد احترق بسبب صاعقة أصابته فنقلوا هذا المنبر منه إلى هذا المسجد، ولم أعرف تعليل كون المنبر وهو من الخشب لم يحترق مع المسجد إلا أن يكون الحائط الذي يليه من الآجر أو الحجارة، وإنما سألتهم عما إذا كان من الأولى أن يعمر مسجد جديد في تلك القرية بديل من المسجد المحترق، ويوضع هذا المنبر فيه؟ فأجابوا أن القرية المذكورة ليس فيها من المسلمين الآن إلا أسرتان.

وليس معنى كون المسجد مبنياً من الخشب أن الخشب فيه كله على هيئة ألواح كما قد يتبادر إلى الذهن؛ إذ حيطانه الخارجية مبنية بخشب قوي بحيث شقوا الخشبة الواحدة نصفين، ثم شدوهما إلى الأخشاب الأخرى بحيث أصبحت بواطن الخشب المشقوق جهة داخل المسجد لأنها منسقة مستوية بخلاف الحائط من الخارج فإنه غير مستو؛ لأنه فيه ظهور الأخشاب المشقوقة.

أما الأعمدة والسقوف فإنها من الخشب القوي إلا أنهم لم يعتنوا بتزويق المسجد أو تزيينه، وإنما راعوا القوة فيه حسبما اعتادوه من البناء بالخشب في بلادهم.

ومن الطريف في هذا المجال أنني رأيت بجانب المسجد جذع شجرة

ضخمة قد قطعت وبقي من جذعها حوالي المتر، فتعجبت من ضخامته فأخبروني أن السبب في ذلك أنها قطعت لعمارة المسجد منها، لأنها قوية وقريبة منه.

فقلت في نفسي: هذا مثلما كان قومنا يعملون عندما يبنون البيوت من الطين حيث يأخذون الطين من الأرض القريبة من المبنى إذا كانت تربتها طينية صالحة، وقد التقطت صورة لجذع هذه الشجرة البرة التي عمر منها المسجد.



المؤلف عند الشجرة الضخمة التي بني منها مسجد ريجي في الينوس لتوانيا

الإسلام والمسلمون في المنطقة:

انتقلنا من المسجد إلى داخل المبنى الحديث الذي أسموه المدرسة، وهو يتسع للمدرسة وغيرها من الأغراض الإسلامية، مع أن المدرسة الآن غير موجودة، وليس في المبنى دراسة، وذلك لقلة من يحسنون التدريس من بني قومهم، بل لانعدامهم.

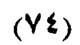
فكانت جلسة في قاعة منها على مائدة مستطيلة ضمت عدداً من الإخوة المسلمين أهل المنطقة، وكان أول ما سألناهم عنه متعلقاً بأحوال الإسلام والمسلمين فيها فقالوا: كانت هذه المنطقة في القديم تتارية مسلمة حافلة بالمساجد والمدارس، فكان في قريتهم هذه في القديم غير البعيد ٤٧ إقطاعية زراعية، وفسروها بأنها المزرعة التي تستغل في الزراعة، فكانت كلها للتتار المسلمين إلا إقطاعيتين ليتوانيتين، أي لأناس ليسوا مسلمين، وقد تغير هذا الآن، فأصبح المسلمون حتى في هذه القرية أقلية عددية ربما لا تزيد نسبتهم على ٤٠٪ من السكان.

قالوا: وكذلك ما حول القرية من المنطقة كانت خاصة بالمسلمين، ولذلك نعرف الآن فيها إحدى عشرة مقبرة من مقابر المسلمين سنريكم إحداها، وبعض هذه المقابر قديمة بحيث يصل تاريخها إلى خمسمائة أو ستمائة سنة مضت، قالوا: ولا يزال فيما حول قريتنا من القرى حوالي ٥٠٠ مسلم.

قالوا: ومنذ أربعمائة سنة ضيعنا لغتنا التتارية، فأصبحنا لا نعرفها، ولا يعرفها منا أحد الآن.

قالوا: وفي وقت انقطاع الاتصال مع المسلمين في الخارج لم يبق عندنا أحد ممن يعرف شيئاً من الدين، وآخر من كان يعرف شيئاً منه كان شيخاً مسناً توفي عام ١٩٤٧م، ولم يوجد بعده من يعرف أي شيء من أمور الدين.

قلت لهم: في الوقت الحاضر ماذا تصنعون؟ قالوا: لدينا شخص عمره ٨٠ يصلي بنا لأنه يعرف شيئاً من قراءة القرآن، وإلا فإنه ليس متعلماً تعليماً إسلامياً، فذكرت بذلك أمثاله من الأئمة الذين رأيناهم في بولندا قبل سنوات، وفي غيرها من المنطقة، وأنهم لا يعرفون أي شيء من العلوم الإسلامية، وحتى قراءتهم للقرآن غير واضحة، ولكن لا يوجد غيرهم.



في داخل مسجد ريجي في لتوانيا مع الأستاذ ميكاولافيتش رئيس الجماعة الإسلامية التترية في ريجي

يصلون جمعة واحدة في الشهر:

وجاء ذكر الطامة العظمى في حديثهم عندما اتصل الكلام على وضعهم الإسلامي في الوقت الحاضر، وأن ذلك الشيخ المسن، والمراد بالشيخ هنا هو الشيخوخة في العمر، وأنه يصلي بهم الجمعة أيضاً، فسألتهم السؤال التقليدي عن عدد الذين يصلون صلاة الجمعة فقالوا بدون مبالاة: نحن نصلي الجمعة الأولى من كل شهر عربي، ولا نصلي جمعة غيرها في ذلك الشهر، قالوا: وعدد الذين يصلون الجمعة في المتوسط هو ٢٠ رجلاً و ٣٠ امرأة.

وقد بادرت للاستفهام من المترجم العربي الأخ خالد طقش، ومن الذي يعرف شيئاً من الإنكليزية الأخ (أدس) عن صحة ما قالوه بمعنى أنهم قالوه حقا، فأكدوا ذلك بأنهم قالوا إنهم لا يصلون إلا الجمعة الأولى من كل شهر

عربي، ويكتفون بذلك عن صلاة الجمعة في بقية الشهر.

فسألتهم عن أي شيء يستندون إليه في هذا؟ فأجابوا: إنهم لا يعرفون، ولكنهم ساروا على هذه الطريقة منذ سنين لا يعرفون أولها.

وهنا بينت لهم بعبارات قوية واضحة بأن ذلك لا يجوز، وأن المسلمين الذين لا يصلون الجمعة لا يعتبرون مسلمين حقيقة، وأنهم ليس لهم عذر في عدم الصلاة، فالمسجد موجود، والمسنون الذين يمكنهم أن يصلوا دون عائق من عمل أو نحوه موجودون. قلت ذلك لأنهم قالوا: إن صلاة الجمعة توافق العمل، ولا يستطيع المرء منا أن يترك عمله، فقلت لهم: إن إخواناً لكم في أنحاء عديدة من العالم يعيشون في بلاد غير إسلامية ولكنهم يصلون الجمعة؛ إذ يتفقون مع أرباب العمل على أن يؤدوا الجمعة في ساعة أو ساعة ونصف ويعوضون ذلك بالعمل يوم الجمعة أو غيره من أيام الأسبوع بمقدار ذلك أي بزيادة ساعة أو ساعة ونصف. ونعتقد أنه في ظل الظروف الحاضرة بعد أن استقلت البلاد وأصبحت تملك أمرها أن المسؤولين فيها لا يمانعون في أن يتيحوا لكم تأدية صلاة الجمعة بموجب ترتيب خاص، لا سيما أننا نعرف أن موقفهم بالنسبة إليكم هو موقف جيد. وقد كررت السؤال عن السبب في كونهم لا يصلون إلا جمعة واحدة في الشهر العربي لأعرف ما إذا كان أحد من المتعلمين أو المنحرفين قد أوحى به إليهم، فنفوا ذلك وقالوا: هذه عادة اتخذناها من تلقاء أنفسنا.

فقلت لهم ولإخواني: إنه الجهل الذي سيطر عليهم، ولا شك أن الذنب في ذلك ليس مقتصراً عليهم مع أنهم غير مبرئين منه إذ كان يجب عليهم أن يسألوا عن أمور دينهم ولو بمراسلة الدول الإسلامية، وإنما نحن أيضاً سكان الحواضر الإسلامية الذين أعطانا الله مالاً وعلماً نحن مقصرون، فواجبنا يقتضي أن نتصل بهم، ونساعدهم في أمور دينهم، وهانحن نفعل ذلك الآن، ونسأل الله تعالى أن يعفو عنا ما سلف.

وأما إخواننا من البلدان الإسلامية الأخرى فإننا نرجو أن يكون في قراءة هذه الأوراق وفي غيرها مما سوف نرسله إليهم ما يحفزهم على القيام بذلك تجاههم، وتجاه إخوان لهم في شمال الأرض حالتهم مثل حالتهم، إلا ما كان من أمر الإخوة المسلمين التتار في (فنلندا) فإنه أفضل، وقد شرحت ذلك في كتاب: " إلى شمال الشمال: بلاد النرويج وفنلندا ".

سؤال جاد:

كان الإخوة يلحّون في حديثهم إلى كونهم صاروا أقلية في هذه البلاد التي كانوا يعتبرون أكثرية فيها، فسألت رئيسهم سؤالاً جاداً ظن أنه هازل أول الأمر فقلت له: كم عدد أولادك ؟

فقال: اثنان ! فقلت له: إن هذا عدد قليل، ينبغي أن تعمل على أن يكون العدد ستة أو سبعة.

فضحك والآخرون مثله يبتسمون، وقال مازحاً: المشكلة قلة النقود، وإلا لتزوجت أربع نساء !.

فقلت لهم: إن القضية ليست مزاحاً وإنما هي جد، إن الإسلام شجع على زيادة النسل، وقال رسول الله ﷺ: (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة).

ولو عملتم بأمر الرسول ﷺ في هذا الشأن وأطعمتوه لما أصبحتم كما أصبحتم عليه اليوم أقلية قليلة العدد في بلادكم. إنني علمت أن المسلمين مثل غير المسلمين في البلاد من ناحية عدد الأولاد، وكانوا في وقت من الأوقات يقلون حتى عن عدد المسيحيين، لذا صاروا إلى ما صاروا عليه من القلة التي تتبعها أو تصحبها الذلة في أكثر الأحيان.

ويجب عليكم أن تنشروا في المسلمين فكرة التناسل بشكل أكثر، وتشجيع الزواج المبكر، وزيادة عدد الأولاد، وذلك بأن مواطنيكم من

اللتوانيين غير المسلمين لا يتحملون زيادة الأولاد في الوقت الحاضر، ويمكنكم أنتم أن تتحملوا بالصبر وزيادة الإنتاج الشخصي من عملكم ذلك، لاسيما أن أكثركم مزارعون من مربي الماشية، وتعيشون في الريف أو في قرى ريفية، فلستم محصورين في شقق ضيقة من أبنية المدينة.

وأقترح عليكم أن تبدؤوا في ظل الظروف الاقتصادية القاسية حملة توعية للمسلمين في هذا الموضوع، وأن تبدؤوا بدعوة المسلمين الذين لا يصلون الجمعة إلى الصلاة التي يجب أن تصلوها كل يوم جمعة حتى تصبحوا مسلمين مطيعين لله ورسوله، وعن طريق الصلاة في المساجد يمكنكم أن تصلوا إلى عدد أكبر من المسلمين فتسمعوهم ما تريدون من هذا الأمر وغيره.

ثم إذا قوي ساعدكم، أو قوى اتصالكم بإخوانكم المسلمين في الخارج استطعتم أن تؤسسوا صندوقاً تسمونه مثلاً صندوق تشجيع الزواج، تساعدون منه من يريد الزواج من المسلمين، ومن يولد عنده أكثر من ولد أو ولدين من المسلمين، وبذلك تتجنبون الاضمحلال والزوال الذي كاد يحيق بكم.

وقد تفهموا الفكرة وإن كانوا أظهروا عجزهم عن تنفيذها في الوقت الحاضر، وقالوا: إننا نحرص على تعويض سنوات الضياع.

وقد أحضروا في الاجتماع فطيرة كبيرة من صنع النساء، داخلها زبيب مستورد وتفاح من بلادهم، وهي كبيرة بحيث تكفي الحاضرين منا ومنهم، ويزيد العدد على عشرة رجال.

وقد أبديت لهم إعجابنا بخصوبة الأرض، وكثرة الأعشاب والأشجار فيها، فذكروا أن المسلمين يعيشون بصفة عامة على تربية الأبقار، ويزرعون علفها مع القمح إضافة إلى الأعشاب، وعندهم قليل من الخيل لا يأكلون لحومها كما كان التتار الأقدمون يفعلون، وقد رأيت أمام أحد بيوتهم حفرة

مليئة بالماء على هيئة بحيرة فيها بط يسبح، وذكروا أن الأشجار الضخمة التي لديهم لا يستطيعون قطعها إلا بإذن من الحكومة التي تطلب منهم أن يدفعوا ثمناً لكل شجرة من أشجارهم يريدون قطعها، قالوا: حتى شجر المقبرة التي في ملك المسلمين منذ قرون لا نستطيع قطع أي شجرة من شجرها إلا إذا دفعنا مبلغاً للحكومة ثمناً لها.

وقد قدمنا لهم مبلغاً رمزياً عاجلاً من المال بالعملة الأمريكية لإدارة شؤون المسجد، ومبلغاً آخر قليلاً لأمور المدرسة، فأعظموا ذلك وشكروه وبكى رئيس الجماعة الأخ (إيبولتش ماكولا فتش) وكرر قوله: إننا حريصون مثلكم على تعويض الضياع الذي حاق بنا في الماضي.

فقلت له: إننا سوف نتعاون معكم في تخصيص داعية يرشدكم إلى أمور دينكم، ونحن مستعدون الآن لصرف راتبه من رابطة العالم الإسلامي، ولكن الشأن في وجود شخص يعرف اللغة اللتوانية التي تعرفونها، فإذا وجدتموه أو احتجتم إلى أمر آخر كتبتم إلينا في الرابطة بشأنه، وأعطيناهم عناويننا الشخصية، وعنوان الرابطة في مكة المكرمة.

مقابر المسلمين:

ما رأينا طائفة من المسلمين في كل مشارق الأرض ومغاربها تعتني بالمقابر مثلما يفعل التتار، وليس معنى ذلك أنهم يبنون على القبور أو يرفعونها عن الأرض أكثر من المعتاد، وإنما المراد أنهم يحافظون على وجودها ويسورونها وينوهون بذكرها، ويجعلون زيارتها في برنامج الزائرين لبلادهم.

وظني أن ذلك راجع إلى كونهم أقلية عددية ذات مجد قديم انحسر، ولم يبق منه إلا الذكريات، فصاروا بقصد أو غير قصد يعتنون بمقابرهم لكي يتذكروا ذلك المجد الذاهب، أو لكي يكاثروا بأمواتهم غيرهم من الأحياء.

وقد رأينا شبهاً بذلك في اليهود في مهاجرهم إذ يعتنون أشد العناية

بمقابرهم ويحافظون عليها.

نوه هؤلاء الإخوة المسلمون بأن لديهم في هذه المنطقة مقبرة من مقابر المسلمين، ولا شك أن هذا يدل على أن المسلمين كانوا كثرة في الماضي في المنطقة، وإلا لما خلفوا كل هذه المقابر.

فقلت لهم: إننا نريد أن نرى مقبرة من المقابر القديمة؛ لأنها تكون فيها في العادة كتابات بالحروف العربية، إذ كانت الحروف العربية هي المستعملة عندهم في الكتابة سواء في لغتهم التتارية أو في العربية التي يعرفها طلبة العلم الذين كان عددهم كثيراً عندهم، فذكروا واحدة قريبة جداً من المكان فيها قسم حديث وقسم قديم.

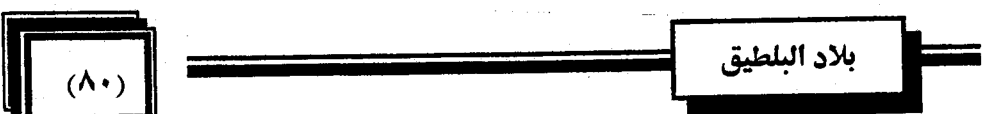
دخلنا إلى المقبرة مع باب على سور بالخشب والأسلاك المحكمة حتى لا تدخلها كلاب أو حيوانات، فكان أول ما استرعى انتباهنا أن المقبرة تغطي أرضها أشجار ضخمة سامقة، أعجبني طولها فقلت لهم: إنه يظهر أن بلادكم لا تشهد عواصف عاتية وإلا لما بقيت هذه الأشجار بهذه الارتفاع والسموق، فقالوا: نعم إن الأمر كذلك.

أول ما اطلعنا عليه من المقبرة القسم الحديث، وأهم ما يميزه أنهم يكتبون على شاهد القبر الذي عند رأس الميت اسمه وتاريخ ولادته ووفاته، ويرسمون في أكثر الأماكن صورته أيضاً.

والصورة والأرقام التاريخية لولادته ووفاته ظاهرة معروفة لنا لأنها بالأرقام العربية التي نسميها نحن بالإفرنجية؛ إذ لا أرقام للروس بل للناس كلهم حتى أهل الصين غيرها.

وأما الصورة فإنها ظاهرة، ومع ذلك رأيتهم غالباً ما يكتبون فوق القبر عبارة باللغة العربية مثل الشهادتين أو آية قرآنية قصيرة.

ومن القبور اللافتة للنظر قبر امرأة كتب عليه أنها ولدت في عام ١٩١٠



وماتت في عام ١٩٨٩، فيكون عمرها على ذلك ٧٩ سنة أي أنها ماتت وهي عجوز، ومع ذلك رسموا على قبرها صورتها عندما كانت فتاة شابة في سن الخامسة والعشرين، فصارت الصورة غير حقيقية، بل إنها بعيدة من الحقيقة، فهي ليست صورتها عندما توفيت، ولا هي على صورتها الآن في قبرها.

وهكذا في العديد من القبور.

وقد نوه المرافقون منهم بأن هذه المقبرة تحتوي على قبور ستة من أئمتهم، من دون أن يميزوا قبر الإمام من قبر غيره من سائر الناس.

فالقبور كلها غير مرفوعة عن الأرض إلا بمقدار الشبر، وأما شواهد القبور فإنها ترتفع حوالي المتر.

وما رأيت تمييزاً في قبر الإمام إلا أنهم رسموا صورة الأمام على قبره وعلى رأسه العمامة التي كان يلبسها في حياته، وذكروا أنه إمام مسجد توفي عام ١٩٤٥، وقبر إمام آخر توفي قبل ذلك حسب التاريخ المنقوش على قبره، ولكنهم لم يرسموا صورته على القبر أو على الأدق على شاهد القبر، وذكروا أن أسرة هذا الأمام هاجرت إلى الأرجنتين، ولم يبق منها الآن في بلادهم أحد.

وشواهد القبور كلها من الحجارة، وغالباً ما تكون من الحجارة السوداء أو من الرخام الأسود.

ثم انتقلنا إلى القسم القديم من المقبرة، وقد دثرت قبوره أي انمحت معالمها، فأصبح المرء لا يكاد يميز القبر من غيره، وتبعثرت شواهد القبور، ودفن بعضها في الأرض، وجميع الشواهد مكتوب عليها بحروف عربية بخطوط جيدة من دون صور، ولكن معظمها مدفون جزء منه بحيث يصعب قراءته إلا إذا حفر عنه وأخرج من الأرض ثم نظف من التراب، وبعضها مكتوب بالتتارية.

وقد رأينا قبراً مكتوباً عليه تاريخه بالعربية بأنه في عام ١٨٥٨م، ولاشك أن مثل هذه المقبرة تحوي شواهدها كتابات عربية مهمة من الناحية

التاريخية إلا أن ذلك يحتاج إلى وقت وعناية.

لم نطل التجول في القسم القديم، لأن المرء لا يميز حدود القبور، فيخشى أن يمشي فوقها، وهي قبور لمسلمين ينبغي احترامهم، وإنما خرجنا من المقبرة نتأمل المنطقة، فإذا بحيرة صغيرة قريبة من المقبرة، فالتقطت لها صوراً من عند باب المقبرة.

وعلى ذكر البحيرة ذكر الإخوة المرافقون رقماً يخيل للمرء أنه مبالغ فيه عن عدد البحيرات في لتوانيا، كما ذكروا أن فيها من الأنهار (٣٠٠) نهر، وأن ذلك يشمل الأنهار الصغيرة ومجاري المياه الذاهبة للأنهار.

وأما البحيرات فإن عددها كبير لصغر أحجامها وانتشارها في البلاد.

العودة إلى فيلونس:

ودعنا الإخوة المسلمين وداعاً حاراً، وبدأنا العودة إلى مدينة فيلونس في الرابعة والثلث، وسنعود من طريق غير الطريق الذي جئنا منه ذلك طريق سريع يسمونه (أوستراد)، وهو ذو اتجاهين للذاهب والآيب، وهذا طريق ذو اتجاه واحد تتلاقى فيه السيارات لا يفصل بينها إلا خط أبيض.

بدأ الطريق معبداً غير مزفلت، وكثرت رؤية الأبقار السمينة في المنطقة، وكذلك البحيرات الصغيرة، ورأيت لأول مرة بعض أغنامهم التي هي صغيرة الحجم سكرية اللون، يخيل إليك إذا رأيت الخروف منها أنه كتلة من الصوف تسير على الأرض لكثرة الصوف عليه، وأخبرنا الإخوة أنهم لا يرغبون في لحم الغنم هنا لكونه دسماً جداً قليل الهبر، ولا شك أن ذلك بسبب برودة المنطقة، وإنما اللحم المفضل هو لحم البقر.

ثم دخلنا الطريق المزفت وهو جيد الزفلتة إلا أنه ضيق، وأكثر ما يسترعي الانتباه فيه أشجار التفاح التي أثقلتها ثمارها، فهذا الفصل هو فصل نضج

التفاح وقطف ثمره.



منظر من الطريق بين ريجي وفيلونس

طاقية نابليون:

مر الطريق بتلة صغيرة أشار إليها المرافقون باهتمام قائلين إنها (تلة نابليون)، وذكروا أن نابليون إمبراطور فرنسا عندما مر بجيشه بهذه البلاد في طريقه لغزو روسيا أراد أن يوضح بطريقة عملية كثرة جيشه وقدرته، فأمر كل جندي أن يملأ (طاقيته)، ولعلهم يريدون بذلك قبعته أو غطاء رأسه، تراباً ويضعه على الأرض فتكونت من ذلك التراب هذه التلة الصغيرة التي لم تكن موجودة هنا من قبل.

هكذا ذكر المترجم لنا (الطاقية)، وهو يقصد غطاء الرأس، ولا أدري ما إذا كان القوم يستعملون (الطواقي) عندهم.

ورأيت في الطريق في أكثر من موضع نماذج للخيل الموجودة عندهم،

فرأيتها غليظة القوام غير رشيقة، مما يوحي بالقوة لا بالسرعة، وفيها ملامح من خيل المغول المشهورة في التاريخ عندما استعملوها في غزو بلاد المسلمين، وقد رأيت بقايا تلك الخيول في بلاد المغول في منغوليا الداخلية التي تتبع الصين الشعبية في الوقت الحاضر، وفي جمهورية منغوليا التي عاصمتها (أولان باتور)، وصورت تلك الخيول في كتاب " في شمال آسيا الشرقي ".

بلدة أوكشتاد فرس:

مر الطريق ببلدة اسمها (اوكشتاد فرس)، أهم ما استرعى انتباهي فيها ارتفاع الأشجار وضخامتها وعلوها في الجو، وكون البلدة واقعة قرب بحيرة من البحيرات الكثيرة هنا التي نوهت بها فيما سبق.

وقد أوقفنا السيارة عندها، والتقطت صورة للبحيرة وصوراً تذكارية أخرى عندها.

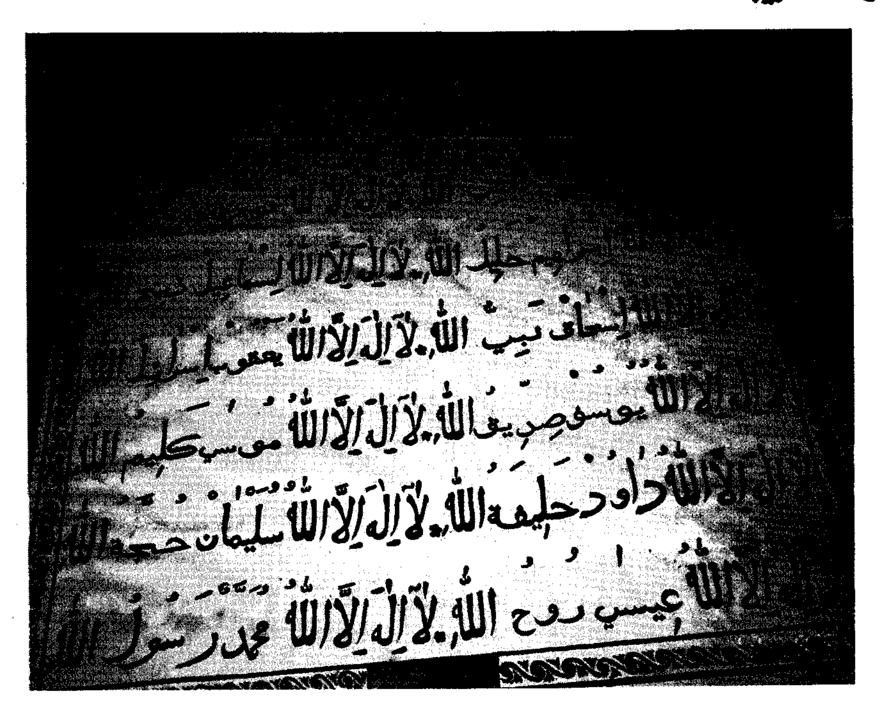
ثم كثرت رؤية البحيرات الصغيرة من الطريق، وهي التي رأيت بعضها من الطائرة، وكثير من البحيرات تكون على حافة الغابات، ولا شك أنهم قطعوا ما حولها من الأشجار، وإلا لكانت الغابات شملتها.

قرية نامي زيس:

في السادسة والنصف كنا نصل إلى ضواحي العاصمة (فيلونس)، ولكننا لم ندخلها، وإنما عدلنا خارجين منها إلى قرية تبعد ٨ كيلومترات عن العاصمة اسمها (نامي زيس)، وذلك لرؤية مسجد فيها.

أول ما استرعى انتباهنا أن المسجد موجود بين المقابر، وتبين أنه بني قبلها، وأن الذين دفنوا في المقبرة تعمد ذووهم، أو تعمدوا هم بأن أوصوا قبل وفاتهم أن يدفنوا قرب المسجد، وهو مسجد صغير مبني بالخشب إلا أنه أنيق البناء، قد جددوه وتأنقوا في بنائه، وجعلوا له منارة مناسبة الطول.

اللوحة الغريبة:



لوحة من داخل مسجد نامي زيس

وقد رأيت فيه لوحة غريبة مكتوبة باللغة العربية وحدها، ليست معها لغة أخرى مع أنه ليس فيهم من يعرف العربية، وقد ذكروا في اللوحة أسماء الأنبياء، أمام اسم كل واحد منهم جملة تصفه بوصف خاص، ويسبق اسمه بالشهادة: لا إله إلا الله. وتقول اللوحة:

لا إله إلا الله جبرائيل ملك الله، لا إله إلا الله ميكائيل ملك الله، لا إله إلا الله آدم صفي الله، لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله، لا إله إلا الله إسحق نبي الله، لا إله إلا الله يوسف صديق الله، لا إله إلا الله داود خليفة الله، لا إله إلا الله عيسى روح الله، لا إله إلا الله يعقوب إسرائيل الله إلخ.

وقد وضعوا هذه اللوحة العربية في مكان معتنى به، وكأنما المقصود من ذلك مجرد تعليقها وليس فهم معناها.

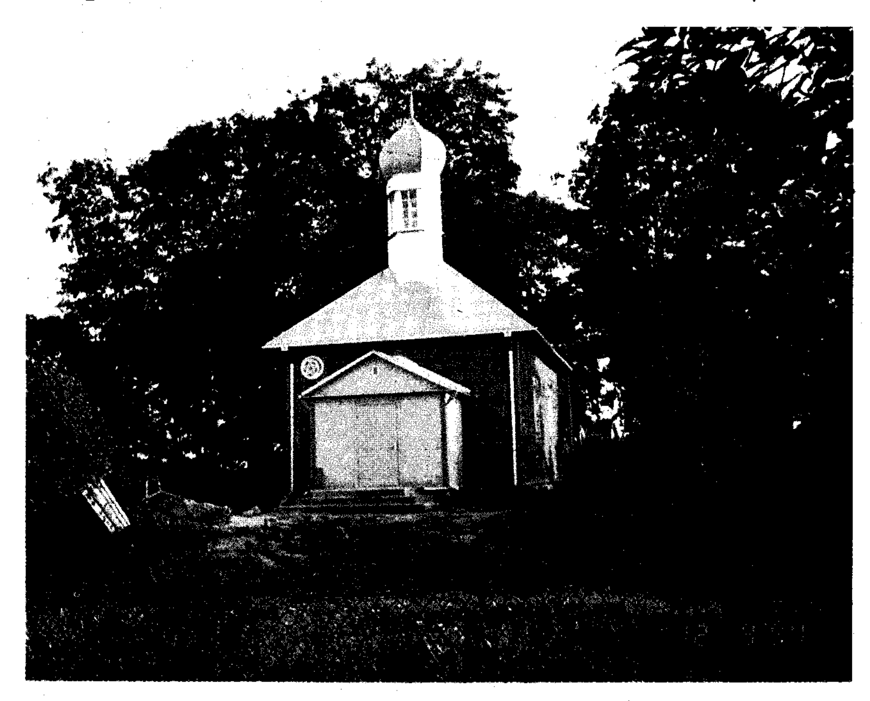
ولاحظنا أن المسجد لا يزال تحت الإصلاح فالطلاء لم يجف بعد، وآثار

البناء لم تزل عنه.

ثم حضر متولي الإصلاح فحدثنا عن المسجد بأنه قديم يرقى تاريخه لأكثر من مائة سنة.

وفيه شرفة ربما كانت لصلاة النساء، ومع ذلك لا أعتقد أنه يتسع لأكثر من خمسين مصلياً، فهو صغير ولم أر بجانبه بيوتاً ملاصقة له، ولم يكن متولي إصلاح المسجد يعرف شيئاً كثيراً عن أمور المسلمين في القرية، أو هكذا بدا من بطئه في الإجابة على الأسئلة، كما أنه لا يعرف لغة أخرى غير الليتوانية.

وقال القوم: إن القرية كانت فيها أعداد أكثر من المسلمين في الماضي، ولكن عددهم قل الآن، والسبب الرئيسي لذلك هو هجرتهم وتفرقهم في البلاد، وأنهم بإحياء هذا المسجد يأملون أن يعودوا للتعارف والاجتماع.



مسجد نامي زيس القرية التي تبعد ١٠ كيلوات عن فيلونس

لم يحضر لدينا أحد من المسؤولين عنه ممن يصح أن يوجه إليهم الكلام بأنه لا ينبغي لهم أن يجددوا بناء المسجد وسط القبور، وإنما ينبغي أن يلتمسوا أرضاً مجاورة خالية من المقابر بحيث لا تلاصق المسجد، ولا يكون في قبلته شيء منها، والأراضي واسعة في بلادهم. والسكان قليل، ويمكن أن يستعمل هذا المسجد الحالي وسط المقبرة ليكون مكاناً للصلاة على الجنائز التي تحضر إليها، وربما كان كذلك في الأصل، وأن يكون المسجد الجديد مكاناً للصلاة والعبادة.

وكاد القوم المرافقون يضحكون مع أنه لا موضع للضحك هنا قائلين إنهم أضعف من ذلك وأعجز عن تنفيذه، فقلت لهم: إنه يمكن لهم إذا رزقوا داعية مرشداً على بصيرة أن يبين لهم هذا الأمر، وأن يستعينوا على بناء المسجد بعيداً عن المقبرة بإخوانهم المسلمين في الخارج، ونحن على استعداد أن نقدم المساعدة من رابطة العالم الإسلامي، ومن أهل الخير المتبرعين بوساطتها.

هذا وقد عدنا إلى الفندق في السابعة والنصف، وقد بقي على غروب الشمس ربع ساعة.

جولة في القسم القديم من المدينة:

كنا شاهدنا القسم القديم من المدينة ونحن نمر به من فندقنا الذي يقع فيه، ولكننا في هذه الليلة فرغنا من الإخوة أهل جمعية التتار الموجودة في العاصمة التي زرناها صباح اليوم حيث وعدناهم أن يحضروا إلينا في الساعة الثامنة ومعهم المسؤول عن الشؤون المالية لنعطيهم بعض المال الذي يساعدهم على دفع أجرة مقر الجمعية الذي يتخذون منه مدرسة ومصلى كما سبق.

وقد حضر إلى الفندق نائب رئيس جمعية التتار، ومحاسبة الجمعية، وهي امرأة مسنة، ومعهما اثنان من الجمعية.

وقد أحضروا أوراقاً تثبت أنهم مدينون بثمانية آلاف (ليتس)، و(الليتس) هو

عملة لتوانيا وتساوي الأربعة منه دولاراً أمريكياً واحداً، هكذا صرفناها في الفندق وفي المطار.



يونس فاليكاس نائب رئيس اتحاد الجماعات التتارية، والسيدة ناتيانا بازا روسكاتيا محاسبة اتحاد الجماعات التتارية في لتوانيا

وقد أعطيناهم المبلغ المذكور ويساوي ألفي دولار أمريكية، كما أعطيناهم ألف دولار أمريكية إضافية لتسيير الجمعية لفترة معينة، وقد أخبرونا أن حكومة لتوانيا كانت تدفع عنهم أجرة هذه الشقة بعد أن استقلت وتخلصت من الشيوعية، إلا أنها الآن ومنذ شهرين أوقفت دفع الأجرة عنهم، وطلبت منهم أن يتدبروا أمرهم بأنفسهم.

وقد استكثرنا أجرة الشقة التي تبلغ ٢٠٠ دولار في الشهر، فذكروا أن الأجور ارتفعت بالفعل إلى درجة غير مظنونة عندهم، وذلك لقلة العروض

للتأجير من المنازل، وليس لزيادة في السكان، لأن السكان لا يزيدون، وإنما ذلك لكثرة الأبنية الخربة التي لم يستطع أهلها تعميرها، وقد شاهدنا ذلك ظاهراً في القسم القديم من المدينة.

وقد تأثر هؤلاء الإخوة بهذه المساعدة المالية العاجلة التي جاءتهم من رابطة العالم الإسلامي من دون أن يحتسبوها؛ لأنهم كانوا في حيرة من أمرهم وكيف يحصلون على أجرة المقر، وبان التأثر على وجوههم حتى خيل إلي أن أحدهم بكى، ورأيت الدمع يترقرق في عينيه.

وقد أوضحنا لهم أننا نأمل أن يكون هذا بداية التعارف ما بينهم وبين الرابطة في المستقبل.

وعندما خرجوا في الثامنة والنصف طلبنا من الأخ (أدس) والأخ خالد طقش أن يبحثا لنا عن مطعم مناسب نظيف نتناول فيه العشاء، فاعتذر الأخ خالد بأنه من سكان (كوناس) ولا يعرف العاصمة، وقال الأخ (ادس) إنه يعرف مطعماً في قلب المدينة.

انطلقنا من الفندق على أقدامنا في جو معتدل جميل كفت فيه البدلة المعتادة مع أن الوقت في أول الليل، وفي جو ساكن لا أثر لضوضاء السيارات فيه، لأن هذا القسم القديم من المدينة ضيق الشوارع بحيث لا تدخله إلا السيارات الصغيرة وهي قليلة، وإنما يكثر فيه المشاة وهم على غاية من الأدب في الشارع، ولا يعدم المرء منظراً جميلاً يعترضه من هؤلاء الماشيات على أقدامهن فوق أرصفة هذا الحي القديم.

فهو حي فاخر بالنسبة لمقاييس المدن القديمة، لأنه أنشئ قبل عهد الشيوعية، شوارعه كلها مبلطة بالحجارة وليس بالزفت، وكلها ذات أرصفة ضيقة جيدة، ومنازله من طوابق قليلة.

ولاحظت فيها شيئاً يشبه ما كنا نسميه في المدينة المنورة بالأحواش، إذ يجد المرء بوابة كبيرة تغلق بباب قوي فوق سقفها غرف أو جزء من المبنى

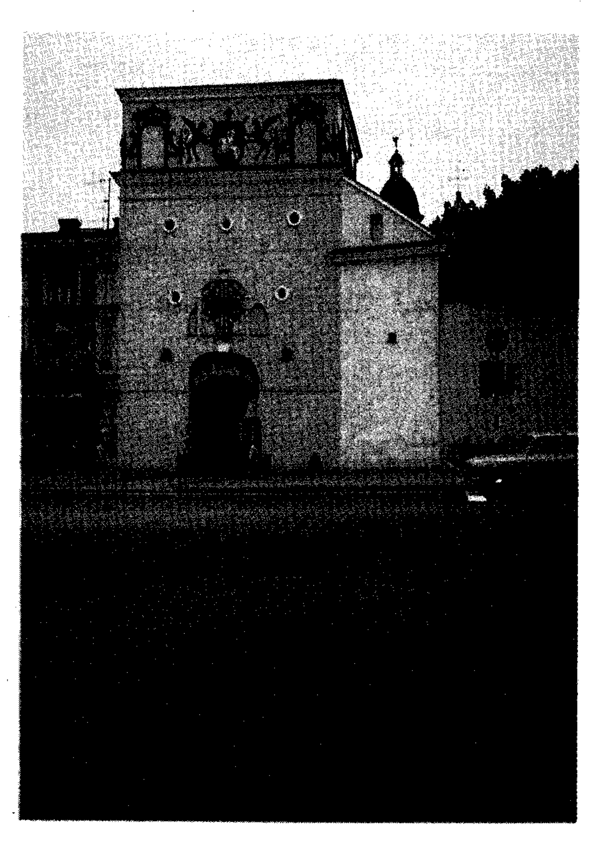
المجاور لها ، وهي تفتح على ميدان صغير فيه أبواب المنازل التي تطل عليه.

وقد بقيت هذه المنازل والبوابات على حالتها القديمة.

وهي كالتي نسميها في المدينة بالأحواش - جمع حوش - وليس معناها هنا الأحواش بمعنى الأفنية المكشوفة داخل المنزل، وإنما هي ما ذكرت.

ولم يجد الأخ (أدس) المطعم الذي قصده مفتوحاً؛ بل وجده مغلقاً منذ فترة.

فذكر مطعماً آخر لم نجده مفتوحاً أيضاً ، ووجد مطعماً تبين أنه للوجبات الخفيفة ، ونحن نريد وجبة كاملة.



بوابة المدينة القديمة في فيلونس

مطعم لوكس:

بعد جولة في هذا القسم القديم الذي مررنا فيه بمبنى بهي المنظر إلا أنه قديم الطراز، ذكروا أنه يسمى (قصر نابليون)، وأن نابليون ملك فرنسا نزل فيه عندما كان في هذه البلاد، وأن السفارة الفرنسية تحل فيه الآن، ولكنه ضاق بها فصارت تبحث عن مبنى آخر في المدينة وجدنا مطعماً جيداً كتب عليه اسمه (مطعم لوكس) رأينا شعاره الذي رسموه عليه رسماً رأس دب أدهم اللون، واللون الأدهم هو الذي بين الأسود والأحمر الذي يسمى الآن باللون البني.

دخلنا إلى المطعم الذي لم يكن مدخله فخماً، فلم نجد فيه متسعاً. وإنما أشاروا إلى درج حجري ينزل إلى الأرض، فنزلنا معه فأفضى إلى درج آخر حتى وصلنا مكاناً متسعاً مؤلفاً من عدة غرف، وكلها تحت الأرض، وقد علقوا في إحدى الغرف وهي التي جلسنا فيها رأس دب محنط، ولما كان وضع هذا المطعم غريباً سألنا عنه عاملة المائدة وهي امرأة في منتصف عمرها جميلة مثل سائر نسائهم، فذكرت أنه كان قصراً لأحد الحكام، وأن هذا هو سبب كونه بهذه الطريقة.

وقد ذكرني ذلك بطابق تحت الأرض مثله في قصر ملكي في مدينة (استوكهلم) عاصمة السويد؛ حيث رأيت فيه طابقاً تحت الأرض ينزل إليه بدرج حجري، وله حيطان حجرية مثل هذا، ذكروا أن الملك وحاشيته المقربين كانوا يجلسون فيه في الشتاء حين يشتد البرد.

وقد طلبنا شيئاً غير مألوف يتناسب مع وضع هذا القصر غير المألوف وهو لحم الأيل، والأيل وعل من الوعول البرية الوحشية يصطادونه ويبيعون لحمه أغلى من لحم البقر، وهو عندهم بمثابة لحم الظباء عندنا.

وطلبنا معه الأرز والشربة وسلطة خضرة، فكانت قيمة الجميع لخمسة أشخاص ٢٨ دولاراً، وهذا رخص متناه في هذا المطعم الجيد.

هذا وقد استكملنا جولة بعد العشاء على الأقدام في هذه المنطقة المهمة، فكان مما لاحظناه كثرة البيوت القديمة الخربة التي تركت دون إصلاح !.



العشاء في مطعم لوكس تحت الأرض في مدينة فيلونس

يوم الثلاثاء: ٨/ ٤/ ١٤١٥هـ ١٣/ ٩/ ١٩٩٤م.

آثار المسلمين:

قال أبو الطيب المتنبي:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً فيدركها الفناء فتتبع

ولكن آثار المسلمين في هذه البلاد لم يدركها الفناء، وإنما أدركها الطغيان الشيوعي فهدّمها ومحاها من الوجود حتى لم يبق منها إلا الأثر بعد العين كما يقول المثل.

فقد ذهبنا إلى الشارع المهم الذي كان يسمى شارع لينبن إبان الحكم الشيوعي، فأوقفنا سيارتنا فيه وهي الحافلة الصغيرة التي استأجرناها ومعها سائقها، ودخلنا منه إلى منطقة مجاورة كانت جزءاً من مدينة (فيلونس) القديمة، وكان المسلمون يقطنون فيها، فوقفنا في مكان أمام مبنى يسمى (معهد الكيمياء والفيزياء) كان مقراً لمسجد كبير في الحي هدموه وبنوا فوق أرضه أبنية هذا المعهد التي لا تعتبر الآن حديثة بالنسبة لما تتطلبه المعاهد ودور العلم من أفنية واسعة مفتوحة بخلاف هذا المبنى المؤلف من عدة طوابق واقعة على الشارع مباشرة.

شارع المسجد:

ويسمى الشارع الذي يقع فيه المعهد المذكور على أرض المسجد بشارع المسجد في الوقت الحاضر، رأينا اسمه مكتوباً عليه (مسكيتس ق ز)، وق ز اختصار لكلمة (قارني) بمعنى شارع باللغة اللتوانية.

وهذه التسمية الحاضرة له هي تسمية قديمة كان الشيوعيون ألغوها عندما هدموا المسجد وأعفوا أثره فغيروا اسمه حتى لا يبقوا على أثر له حتى في

الاسم، فأسموه (شارع التفاح)، ولكن بعد أن ذهب الشيوعيون واستقلت البلاد أعاد أهلها له الاسم الأصيل (شارع المسجد)؛ وكتبوا ذلك عليه بلغتهم عند بدايته ونهايته.



لوحة شارع المسجد وهو يؤدي للمسجد القديم الذي هدمه الشيوعيون وأزالوا أثره

سألت هؤلاء الإخوة عما إذا كان الشيوعيون قد عوضوا المسلمين عن المسجد بمبنى آخر أو على الأقل بأرض يمكن أن يقيموا عليها المسجد، فنفوا ذلك، وذكروا أنهم اغتصبوه ولم يبالوا بأحد.

وشارع محمد:

و (شارع محمد): شارع آخر كان يسمى لسنوات طويلة بهذا الاسم، وكان يقع في هذه المنطقة من المدينة التي كان يسكن فيها المسلمون، وقد

محاه الشيوعيون مع ما محوه من آثار إسلامية ومن دور للمسلمين وغير ذلك، وضاع الآن لأنه كان بين دور هدمت من جانبيه، ولم يبق له أثر مثلما بقي أثر شارع المسجد الذي بقي شارعاً حتى الآن.

وجميع هذه المنطقة التي كانت للمسلمين بنى الشيوعيون عليها مباني حكومية من دون أن يدفعوا أي تعويض لأهلها المسلمين.



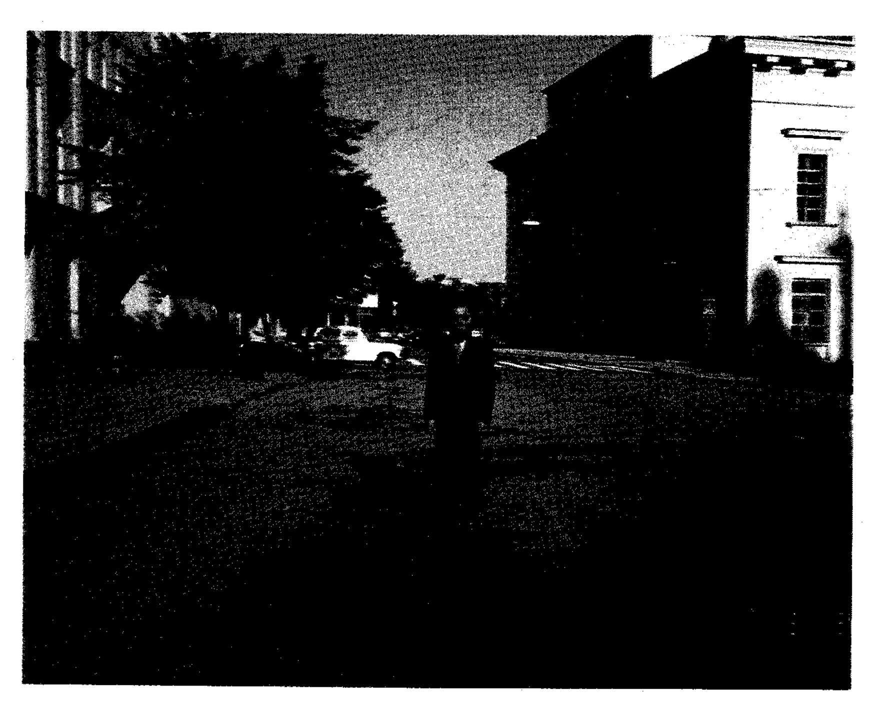
المؤلف في موقع المسجد القديم الذي أزيلت آثاره مع الأخ أداس ياكوبا في فيلينوس

قال الأخ (أدس) وهو كان رئيس جمعية التتار: إننا طالبنا الحكومة الحاضرة بعد أن سقط الشيوعيون وخرج الروس من البلاد أن يعيدوا هذه المنطقة إلينا، فذكروا أن فيها الآن مباني حكومية كبيرة، وأنهم لذلك لن

يتمكنوا من إعادتها، وإنما يمكنهم أن يعوضوهم عنها بأرض من الأراضي الحكومية في إحدى ضواحي المدينة، لأن هذه المنطقة صارت تعتبر الآن في قلب المدينة المهم الذي لم يبق فيه فراغ خالٍ من الأبنية.

فقلت للأخ (أدس): إن هذا أمر مهم، وعليكم أن تبدؤوا أولاً بالحصول منهم على أرض واسعة تبنون عليها مركزاً إسلامياً يتألف من مسجد ومدرسة وقاعة محاضرات ومكتبة حتى يكون أداة لاستعادة الثقافة الإسلامية في هذه البلاد.

وقلت له: إنه لا ينبغي أن يفت في عضدكم عدم القدرة المالية لديكم على عمارة المركز المذكور؛ إذ يمكنكم أن تعملوا بقليل من التبرع على تسويره وبناء أبنية بسيطة فيه إلى أن يقيّض الله لكم من يساعدكم على بنائه من إخوانكم المسلمين في الخارج.



المؤلف في جانب من موقع المسجد القديم المزال في فيلونس

كان هنا مرة مقبرة:

ومثلما فعل الشيوعيون بالمسجد والمنازل فعلوا بالمقبرة، فقد سووها بالأرض، وأزالوا معالمها، وحدثونا أنهم لم ينقلوا عظام الموتى أو حتى يبالوا بهم.

وقد أصبح جزء من مكانها شارعاً، والباقي دخلت في الأبنية الحكومية التي باعت بعضها على شركات.

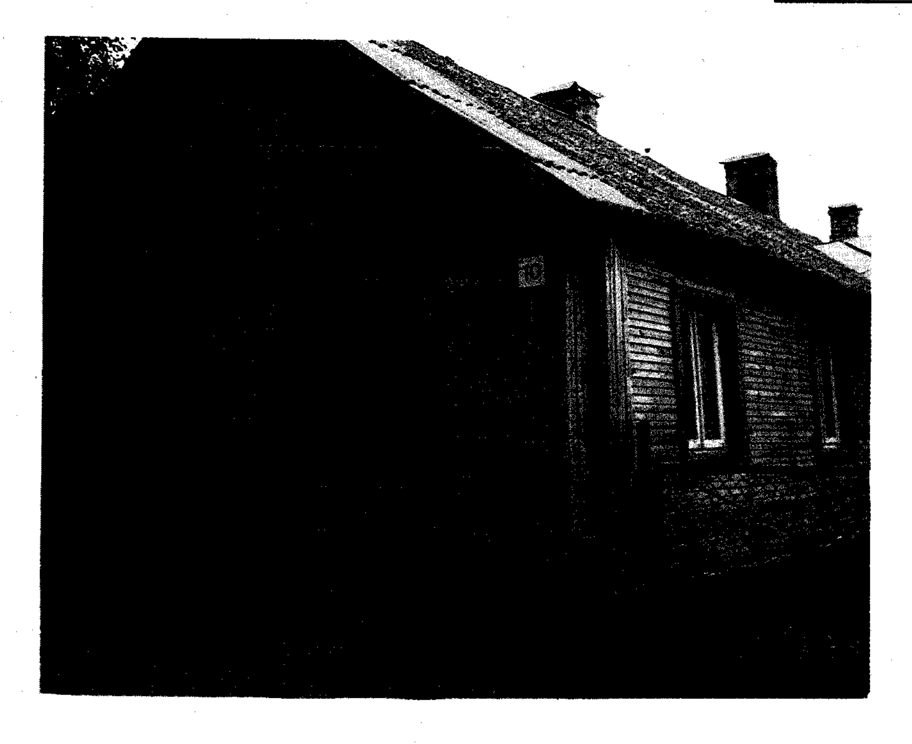
ولم يبق أي شيء من المعالم القديمة لما كان يملكه المسلمون إلا شجرة كستناء، وهي ذات الثمر المسمى عندنا (أبو فروة)، وقد أثقلتها ثمارها، وهي لا تحتاج إلى تعهد من سقي أو نحوه، وكأنما بقيت هذه الشجرة شاهد عدل على ما كان للمسلمين من وجود في المنطقة، وما كان فعله الشيوعيون من طغيان بهم وبآثارهم الثمينة، مثلما بقي اسم (شارع المسجد) شاهداً على ذلك.

وقد سألت الأخ (أدس) عما إذا كانت لديه صور قديمة لهذه المنطقة قبل أن تهدم؟ فأجاب نعم، لدي شيء من ذلك، ولكن من صورة واحدة يحتاج تظهيرها إلى أن تطبع من جديد ثم تستخرج منها نسخ، وقد وعدني بإرسال نسخ منها.

وكان ذلك التهديم في عام ١٩٤٦م إبان طغيان الشيوعية في عهد طاغيتهم الشرير (ستالين).

وكانت المنطقة تسمى (قرية التتار)، وربما لكونها منفصلة عن قلب مدينة فيلونس القديم، أو أنهم كانوا يريدون بالقرية الحي والضاحية وإن كان الأخ (أدس) قال بالإنكليزية: إنها قرية التتار.

جعلت أبحث عن منزل أو منازل لتكون أنموذجاً للقديمة، فوجدت بجانب أرض المسجد والمقبرة يفصل بينها وبينهما شارع غير عريض ثلاثة بيوت من خشب من الطراز القديم فالتقطت لأحدها صورة هي هذه.



أحد المنازل في الحي الإسلامي القديم في فيلينوس

في سفارة إستوينا :

لم نستطع الحصول على جوازاتنا من سفارة لاتفيا إلا في الحادية عشرة من ضحى هذا اليوم، وعلينا أن نذهب بعد ذلك إلى سفارة (إستونيا) التي تحتاج إلى أن تضع عليها سمة الدخول إليها مثلما فعلت سفارة (لاتفيا).

ذهبنا إليها في خارج المدينة، فاجتزنا نفقاً أفضى بعد انقضائه إلى جسر على نهر صغير هو فرع من نهر أكبر منه، ثم وصلنا إلى ضاحية فيها الأبنية المتعددة الطوابق التي تتألف من شقق صغيرة، وقد بنتها الحكومة للإسكان العام كما سبق.

ومثل هذه الأبنية تكون حولها فراغات واسعة قد شملتها الخضرة الكثيفة من الأعشاب النامية على المطر.

ورأيت تلة قد غمرتها أشجار الغابات حتى غدت كأنما هي عمالقة الأشجار قد استطالت حتى نافست أشجار الخيال، وذلك أن الناظر إليها لا يرى من أرض التلة شيئاً؛ لأنها كلها مكسوة بالأعشاب والأشجار، فيخيل إليه أن الأشجار في وسطها قد طالت حيث نبتت في مستوى الأرض المجاورة.

ثم خرجنا من المدينة إلى غابة ملتفة تماماً، ولا أثر فيها لأي منزل أو بناء ما عدا طريقاً إزفلتياً يذهب لداخلها، وقد وجدنا حاجزاً للشرطة في هذا الطريق دون أن يكون فيه أو حوله أي شيء يدل على مبنى أو أية عمارة أخرى، والحاجز على هيئة بوابة من قضبان الحديد، وجدناها مغلقة وعندها شرطي بجانب محراب (كشك) من الخشب.

طلبنا من الشرطي أن يفتح الباب فامتنع، فترجل الإخوة وذهبوا سيراً على الأقدام إلى داخل الغابة مع هذا الطريق الإسفلتي الذي لا نرى نهايته من مكاننا، وبقيت في السيارة مع الأخ حسن بن علي إزميرلي أحد رفيقي الرحلة.

وكان الشرطي قد قال: إن دخول السيارات هنا ممنوع لأن المنطقة يقع فيها مسكن رئيس الجمهورية.

ويذكر هنا أن رئيس الجمهورية الحالي كان هو رئيس البلاد في آخر العهد الشيوعي، ولكنه طلق الشيوعية المتزمتة وصار يسير وحزبه بالبلاد في طريق الحرية الاقتصادية، وغيروا اسم الحزب الشيوعي إلى (الحزب الديمقراطي)، ولكن بقيت مظاهر عديدة من عهد الشيوعية منها أن يكون مسكن رئيس الجمهورية في مكان منعزل داخل غابة محصنة لأنها محاطة بسور حديدي قوي أيضاً.

وقد رأيت مثل هذه الغابة تكون فيها الاستراحات الصحية لكبار الحكام الشيوعيين وضيوفهم في عدة أماكن من أنحاء الاتحاد السوفيتي السابق، وذكرت آخر واحدة مفصلاً في كتاب: « من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي ».

وقد أبطأ علينا الإخوة الذين ذهبوا بالجوازات إلى السفارة مع أننا قد تلقينا دعوة من المسمى بمفتي البلطيق الأستاذ (خراسوف)، وقد قال (أدس) إن سفيراً إستوينا هنا صديق لي.

وكنا قلقنا من التأخير لأن الفندق أخبرنا أن موعد المغادرة عندهم هو الثانية عشرة، ونحن سنسافر اليوم إلى (لاتفيا).

وقد منحتنا سفارة (إستوينا) سمة الدخول المطلوبة، فأسرعنا للفندق ووصلناه قبيل الواحدة، ودفعنا أجرة الغرفة فكانت أجرة غرفتي بعد التخفيض ٨٢ دولاراً أمريكياً.

غداء الشركة الزراعية:

يعمل صاحبنا ومرافقنا الأخ (أدس ياكوبا) في شركة زراعية تعمل في زراعة الخضرات المحمية وفق طريقة تقنية حديثة، وذلك لنفاسة الخضرات هنا وانعدام زراعتها زراعة معتادة في الشتاء بسبب شدة البرد وتساقط الثلوج.

وقد أخبرنا الأخ (أدس) بأن الشركة تساعد المسلمين عن طريق إيجاد أعمال لهم فيها، وإعطائهم مساكن من المساكن المخصصة لعمالها، وذكر أن مدير الشركة بالذات يساعد المسلمين، وأنه يرجو منا أن نمر به ونشكره على ذلك، فاستجبنا لرغبة الأخ (أدس) وبخاصة عندما ذكر مساعدة المسلمين، وطلبنا أن يكون موعد مقابلة المسؤولين فيها ظهراً قبل مغادرة فيلونس.

وتبين أن الشركة تقع خارج العاصمة، وأنها قد أعدت غداء لنا، واسم الشركة (جونت ستوك كومباني).

خرجنا من مدينة فيلونس مع ضواحيها الخضر فوقعنا بسرعة في ريفها الأخضر المعتاد، ومررنا فوق جسر على نهر صغير اسمه (نهر فوكه) نوه الأخ (أدس) بأن التتار المسلمين نزلوا أول ما وصلوا المدينة على هذا النهر الصغير

وفيما حوله؛ لأنه كان خالياً من السكان.

وصلنا الشركة في منطقة ريفية جيدة وفي مكان خلوي نشأت فيه بيوت ومرافق بسبب وجود الشركة، فوجدنا في الاستقبال عند باب الشركة مديرها (برونس لوفاس بالنس) الذي استقبلنا مرحباً وتقدمنا للدخول في مبنى من مباني إدارة الشركة، وجدنا فيه مائدة منصوبة عليها الأشربة المباحة من عصير الفاكهة والماء المعدني إلى جانب الخبز وقليل من السلطة المؤلفة من الخيار والطماطم.

أجلسنا مدير الشركة على المائدة وهو يكثر من الترحيب ويبالغ في المراسم، حتى إنه أقام أحد الحاضرين من مكانه الذي جلس فيه على المائدة وأجلسه في مكان آخر منها مبالغة في (البروتوكول) أي المراسم المتبعة عنده.

وقد أجلسني بمقتضى ذلك على يمينه.

ثم بادرني بقوله كيف شعوركم وأنتم تصلون إلى هذه البلاد؟ فقلت له: الشعور بالصداقة تجاه الشعب اللتواني، وبالأخوة تجاه المسلمين التتار في البلاد، لا سيما أن كتبنا العربية زاخرة بأمجادهم في المنطقة، وكان الأخ (أدس) قد قال لي: إنه يقال إن المدير من أصل تتاري، ولذلك يساعد المسلمين التتار.

وقلت له: إننا من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وهي منظمة شعبية عالمية، وقد جئنا إلى هنا بهدف النظر في التعاون الثقافي الإسلامي ما بين رابطة العالم الإسلامي وبين الجمعيات الإسلامية التتارية في هذه البلاد.

فقال: الواقع أن الدين المسيحي لم يدخل إلى هذه البلاد إلا قبل مجيء التتار معهم بالإسلام بـ٢٦ سنة فقط، والدولة هنا ليست مسيحية، ولذلك يعتبر الإسلام ديناً عريقاً فيها.

وقال: اقتصاد بلادنا هو مماثل لاقتصاد هولندا والدانمرك، ولكن

الاحتلال وتأخرنا للوراء هو الذي سبب تأخر الاقتصاد، ولكنه سيعود للازدهار بسبب التعاون مع الأصدقاء مثلكم.

أقول يريد بكون اقتصاد بلادهم كاقتصاد هولندا والدانمرك مما يتعلق بالإمكانات الزراعية والموارد الطبيعية، وهذا صحيح.

ثم تكلم عن الديانات فيها كلام الخبير العارف فقال: في بلادنا أديان متعددة، منها (الصليبية) وفسروها بعد ذلك بأنها الكاثوليكية، والأرثوذكسية الروسية، واللوثرية، وكان للإسلام وجود ظاهر في القديم، لذلك لا يعتبر أصحاب ديانة فيها أنهم أصلاء في تلك البلاد متعصبون لها، ولذلك نحن في الشركة نقرب المسلمين.

فقلت له: إننا نعتبر أن هذه بادرة حسنة تجاهنا أيضاً وتجاه كل المسلمين في العالم، لأن الدين الإسلامي بالنسبة إلينا ليس هو عبادات مجردة فقط، وإنما هو أيضاً النظام الذي نأخذ به في الحياة، وهو أيضاً الموروث الثقافي الأصيل الذي نعتز به ونحرص عليه.

وقال: إننا لم نحضر على المائدة جعة (بيرة)، أو شيئاً فيه كحول من أجل أن نصبح مرحين لئلا نجرح شعوركم، لأننا نعلم أنكم تكونون مرحين بدون كحول.

ثم انتقل الحديث من الجد إلى الضحك، ومن ذلك ما يتعلق بالجو حيث قال: إنه أصابنا حر في هذا الصيف حتى أصبحت أشعر أنه يمكنني أن أذهب إلى بلادكم ولدي مناعة ضد الحر.

أما الغداء فإن مقدمته صحن فيه سمك صغير مطبوخ، معه بصل مطبوخ أيضاً، وقالوا: هذا السمك من بحر البلطيق، بعده جاؤوا بالحساء وهو (الشربة) وهو حساء الخضار ومعه اللبن، وقد ورد على ذهني القول القديم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، والسمك هنا هو عماد الأكل في هذه المأدبة

لأنهم أرادوا أن يتجنبوا ما قد نتوقف في حلّه من اللحوم الحيوانية، ثم جاؤوا بالطبق الرئيسي وهو نوع من السمك الجيد عندهم، ذكروا أنهم يربونه تربية في البحيرات العذبة في البلاد، وقد وجدته لذيذ المذاق دسماً بحيث تبدو بعض أطراف السمكة كأنما وضعت في دهن، ومع السمك في الطبق بطاطس مسلوق، وخضرات منوعة مطبوخة أيضاً.

ثم جاؤوا بالحلوى وهي حلوى معتادة ومعها عسل طبيعي في إناء منفصل، ذكروا أنه من عسل بلادهم، ثم القهوة.

غرف الطماطم المحمية:



الثمار على أشجار الطماطم المحمية في فيلونس

بعد ذلك ذهبنا بالسيارات إلى حيث البيوت المحمية للخضرات، فكان أول الملاحظات وجود أنابيب ضخمة مغلقة تنقل الهواء الساخن الذي يدفئ هذه البيوت المحمية في الشتاء، وأنابيب مياه ضيقة لأن الماء الذي تحتاجه مثل هذه

البيوت قليل، ولا بد من أن يكون مسخناً في الشتاء، وكان أكثر ما أثار عجبنا ونحن نرى أمثال هذه البيوت المحمية الضخمة أن نبات الطماطم رأيناه معلقاً في الهواء بخطاطيف وقد أثقلته ثماره التي تتدلى منه بكثرة لافتة للنظر، وتبين أن جذوعه صغيرة مغروسة في تربة اصطناعية تشبه القطن، ويرتفع في الهواء من ١٢ متراً إلى ١٥ متراً، لذلك ينكسون أغصانه مرة ثانية، فتبدو متدلية كأنما هي تعيش معلقة وليس لها صلة بالأرض.

وذكروا أن النبتة الواحدة منه تعيش في المتوسط اثني عشر شهراً، منها شهران قبل أن تبدأ بالإنتاج وعشرة شهور منتجة، ثم يقتلعونها ويبدلونها بأخرى لأنها تكون قد شاخت.

وقد قطف لنا مدير الشركة بعض الثمار وقال إنها تؤكل هكذا بدون أن تحتاج إلى غسل لأنها لا تمس الأرض ولم تعفر بأية أدوية.

وهذه البيوت المحمية هي من الزجاج أو من اللدائن الخفيفة الصافية قد انتظمت في صفوف طويلة مستقيمة، عجبنا لها والتقطنا صوراً لبعضها، ثم أرانا صناديق الورق المقوى التي يبيعون فيها الطماطم (الكراتين)، وهي صغيرة بالنسبة إلى التي تباع فيها الطماطم عندنا، ويحتوي (الكرتون) الواحد منها على ٤ كيلوات، وثمنه ثمانية دولارات أميركية، والمراد بما يعادل ذلك من عملتهم الوطنية (الليتس)، وهذا غلاء متناهٍ بالنسبة إلى أسعار الطماطم الطبيعية، أي التي امتصت الماء من الأرض؛ إذْ يقل سعر الكيلو منها عن نصف ذلك كثيراً عندما يباع بالصندوق.

وعندما تعجبنا من هذا السعر قال مدير الشركة: لا شك أن الطماطم عندكم أرخص بكثير مما هي عندنا؛ لأنها لا تحتاج عندكم إلى بيوت محمية وما تتطلبه من نفقات كثيرة.

وقال: حتى البلدان القريبة منا في جنوب أوروبا هي أرخص منا كثيراً

لهذا السبب.

وعملهم هذا عمل عظيم يتطلب أن يقوم به ويشرف عليه أناس ذوو خبرات متخصصة، ويتطلب نفقات ضخمة قد عافانا الله منها عندما نزرع الطماطم مباشرة في الأرض، أو حتى في بيوت محمية لا تحتاج إلى عناية كبيرة، لأن الجو عندنا ليس بذي برد شديد.

وغرف الزهور:

ثم انتقلنا إلى ركن آخر من هذه البيوت المحمية التي تبلغ عدد الغرف فيها بلا شك عدد الغرف في قرية صغيرة، وهي غرف أو لنقل بيوت مخصصة لاستنبات الزهور التي يقصدون تصديرها إلى الخارج؛ بخلاف الطماطم التي هي معدة للاستهلاك الداخلي.

وهذه الزهور كبيرة الحجم إلى درجة غير معتادة، حتى إن حجمها يصل إلى حجم زهرة دوار الشمس، وذكروا أن هذه الزهور تعمر عادة ثلاث سنين، وأنها تبدأ بالإنتاج بعد ثلاثة أشهر من استنباتها.

وقد وضعت أصول هذه الزهور في أصص صغيرة مرفوعة عن الأرض، وتشرب من أنابيب صغيرة ضيقة جداً؛ بحيث لا تنقل إلا مياهاً قليلة.

وقد وجدنا عاملات جميلات يعملن في رعاية الزهور، فقال أحدنا: إن زهوراً تمشي على الأرض ترعى زهوراً نابتة من دون أن تمس الأرض، وقد التقطنا صورة لإحدى العاملات وهي منهمكة في عملها بين أصص الزهور.

ثم انتقلنا من ركن الزهور إلى ركن آخر هو ركن الخيار، وأنواع من القرع كلها مما استنبت في هذه البيوت المحمية، وبدون أن تصل إلى التربة، وإنما جلبوا تربة صناعية كيماوية تشبه في منظرها القطن.

ثم عدنا إلى مكاتب الشركة حيث قدموا الشاي في مكتب ذكر الأخ (أدس) أنه سيكون مقراً لجمعية دعم العمل الإسلامي التي يسعى لإنشائها،

ولكنها حتى الآن لم يعين لها أعضاء، ولم توافق السلطات الرسمية على تسجيلها، وبهذا لم تصبح جمعية بعد، كما أن ميدان عملها ليس واضحاً.

وتحدث مدير الشركة عن شركته، فذكر أنها كانت مزرعة حكومية باعتها الحكومة لكونها لم تحقق منها أرباحاً، وأن شركته استدانت من المصارف لكي تعمل على تطويرها وجعلها ناجحة، وأنهم يأملون في ذلك قريباً.

وتحدث كما تحدث (أدس) من قبل عن المنتجات التي يمكن أن تصدرها بلادهم للمملكة، وقال: من ذلك منتجات الألبان والأخشاب.

وقد أنفقنا وقتاً في الشركة أطول مما قدرناه.

العودة إلى العاصمة:

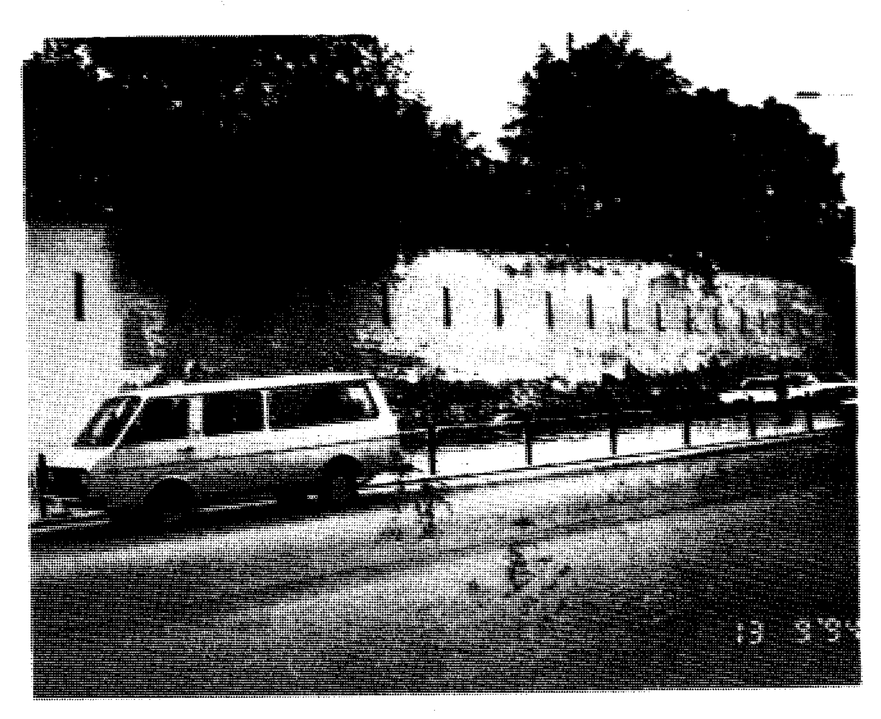
ثم عدنا إلى المدينة في الثالثة والنصف، ووقفنا في محطة الحافلات لكي يعود الأخ خالد طقش الذي نفعنا الله به بالترجمة، وكان يترجم ما بيننا وبين رئيس الشركة وغيره، وعند المحطة سوق مهم لم نجد فيه أي فاكهة تباع، وكنا نريد شراء شيء منها نتزود به للسفر الذي سيكون إلى جمهورية (لاتفيا) بالسيارة.

ومن الأشياء اللافتة للنظر في هذا السوق منظر رجل مسن وامرأة عجوز يكنسان الشارع بمقشات، وهما واقفان.

سور من عهد التتار:

كنت سمعت عن سور قديم يرقى عهده إلى ٦٠٠ سنة كما قالوا، وهو من عهد الحكم التتاري المسلم في البلاد، وهو في الحقيقة جزء من سور وليس سوراً كاملاً، ومع ذلك فإن كونه قديم العهد، وكونه في عهد المسلمين

التتار مما يحفز على رؤيته.



بقايا من السور القديم الذي بناه التتار المسلمون في فيلنوس

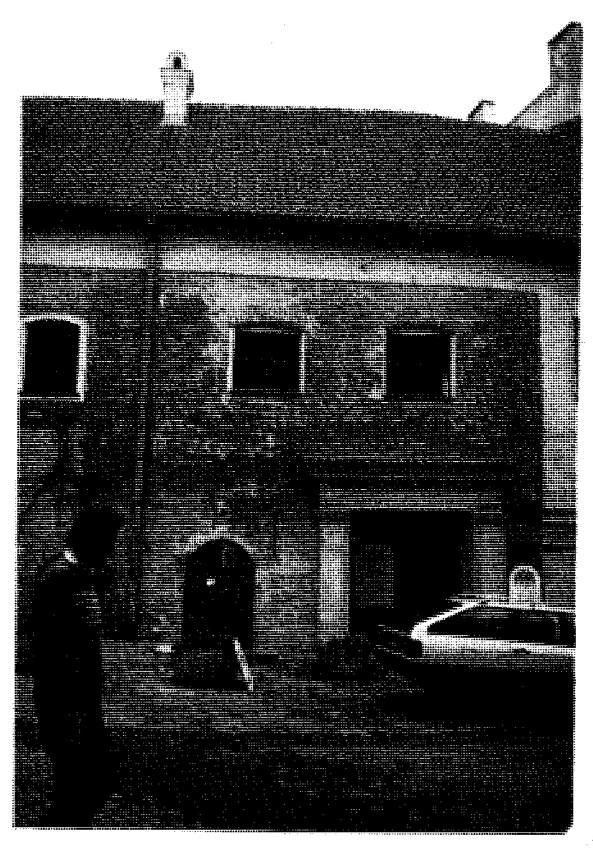
وجدنا السور قطعة صغيرة غير طويلة مبنية بالحجارة والطين، وقد شملتها العمارة حيث إنه كان على قلب المدينة القديم الحالية، ولكن معظمه قد هدم وبنيت عليه أبنية أحدث عهداً من السور، وفيه كوى - جمع كوة وهي الثقب الضيق في الجدار - بحيث لا يُرى من ينظر منه لضيقه، وتشبه هذه الكوى ما كان موجوداً عندنا في البيوت الكبيرة القديمة.

والسور كله جدد طلاؤه في وقت قريب، وكذلك طلاء أبنية متصلة به وقريبة منه، منها برج قديم ذو هندسة خاصة، تحته بوابة عليها بناء هو الآن مقر رئاسة الكنيسة الكاثوليكية في البلاد، واسم الشارع الذي يدخل مع هذه البوابة إليه (دجوي قيت وي)، وقال (أدس) معناها: الشارع القديم.

دار الإفتاء القديمة :

دخلنا مع البوابة إلى الشارع المذكور الذي تحيط به أبنية قديمة عديدة ومنها كنيستان كبيرتان، إحداهما عالية البناء.

ووقفنا عند مبنى مهم كان دار الفتوى القديمة في لتوانيا ، وقد ألغى الشيوعيون الإفتاء الإسلامي، فصادروا داره وحولوها إلى معرض الفنون، وذلك عند الاحتلال الروسي للبلاد الذي حدث عام ١٩٤٠م.



دار الإفتاء القديمة لمسلمي لتوانيا في مدينة فيلنوس

ومن اللافت للنظر أن تقع إلى جانب دار الفتوى كنيسة كبيرة رأيناها اليوم عامرة لم تغير، ولا أدري أصادرها الشيوعيون ثم استعادها أهلها ، أم

أنها لم تخرج من أيديهم أصلاً !.

وقد ألححت على الأخ (أدس) أن يجمع المسلمين ويجعلهم يطالبون بالمتلكات الإسلامية المصادرة لكي ينتفعوا بها للمؤسسات الإسلامية التي ينتظر أن توجد بإذن الله، ولكنهم على حال من الضعف والانكسار النفسي مبعثه الضغط العظيم القديم، وضيق ذات اليد في الوقت الحاضر.

وقال الأخ (أدس): كان آخر المفتين في البلاد الذين عملوا في هذه الدار هو الشيخ (شنقا فيتش)، وقد هاجر إلى أمريكا.

مغادرة فيلونس:

ومغادرة فيلونس ليس معناها مغادرة لتوانيا؛ لأننا سوف نسافر بطريق البر على الحافلة الصغيرة التي استأجرناها إلى ريقا عاصمة لاتفيا.

وتبلغ المسافة من فيلونس إلى (ريقا) (٣٠٠) كيلومتر.

غادرنا المدينة في الرابعة والنصف مع ضاحية كان أهم الملاحظات فيها أن الطريق واسع، ولكنه غير مفصول بين السيارات المتعاكسة السير إلا بخط مصبوغ، وقد تركوا حواشي الشارع تنمو فيها الأعشاب الخضر الكثيفة.

ومع الجمال الظاهر الطبيعي في الضاحية التي سلكناها، فإن هناك مناظر قابضة للنفس، منها العبوس الظاهر على السكان، وفقدان روح المرح أو الاستبشار بالحياة، كما يلاحظ ذلك الغريب التي يأتي إلى بلادهم، وكذلك منظر البيوت غير المعتنى بها مما يحد من الشعور بهذا الجمال الطبيعي.

وقد وصل الطريق إلى لافتة عليها اسم المدينة (فيلونس) مضروباً عليه بخط أحمر، مما يعني أننا خرجنا من منطقتها.

ووقعنا في الريف الخصب المعهود الذي تزينه أشجار الفاكهة التي

أهمها التفاح، ويتميز بوجود حقول حصيدة قد كستها الأعشاب البرية، وترعى فيها الأبقار السمينة الحسنة المظهر.

ثم حسن الطريق وصار ذا اتجاهين، وهو الذي يسمونه هنا دون غيره (أوستراد)، وبين خطي الذهاب والإياب في هذا الطريق المزدوج جزيرة فيها أعشاب وحشية غير مهذبة، وليست فيها زهور أو أشجار من أشجار الزينة، مع العلم بأن ذلك لا يكلفهم شيئاً؛ لأنه يسقى بماء المطر في أيام الدفء، ويموت مثل غيره في أيام الشتاء الثالجة.

والجو غائم اليوم دون أن يسقط مطر لحسن حظنا، ولم يكن في صحبتنا من أهل البلاد إلا الأخ (أدس) الذي يسميه الطلاب العرب هنا (عدس)، وهو صموت قد أحزنته حال المسلمين، وربما أحزنه شيء آخر أيضاً، لذلك لم نجده يبادرنا بالأخبار بالمعلومات المفيدة، وربما كان أيضاً لعدم إجادته الإنكليزية دخل في ذلك.

وقد اعترض الطريق جسر طويل جيد مبنى من الإسمنت لتسير عليه السيارات المعارضة.

قرية فشو قالة:

مر الطريق بقرية إلى اليمين اسمها (فشو قالة)، بيوتها ذات مظهر جيد لأنها مسقفة بسقوف من الآجر الأحمر على هيئة أسنمة حادة حتى تنزلق عنها الأمطار في الصيف والثلوج في الشتاء.

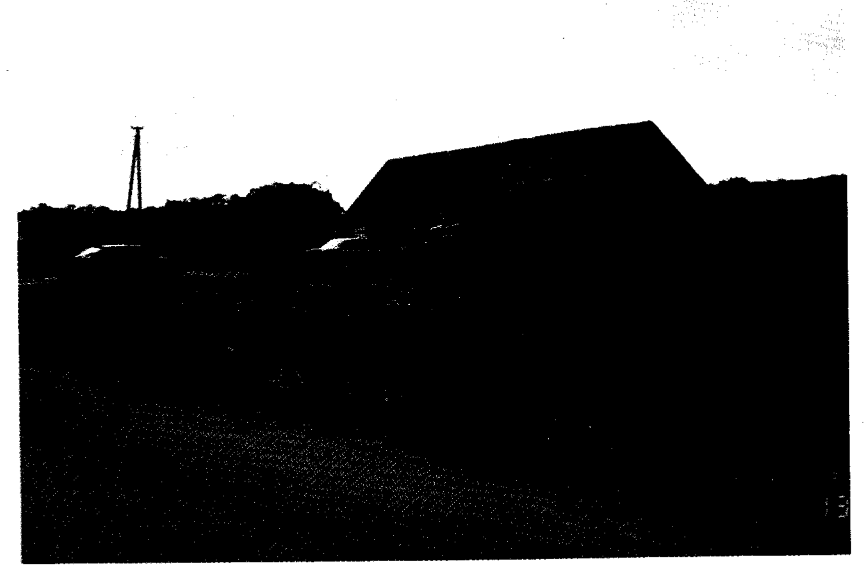
واستمر الطريق ذا اتجاهين مستقلين وهو يشق منطقة غابات وأعشاب كثيفة، حتى كأنما هي كلها حديقة واسعة، وأكثرها خالٍ إلا من بيوت ريفية قليلة مبنية من الأخشاب.

وترعى الأبقار في أكتاف الطريق ومتسعاته، غير أن البحيرات هنا هي

أقل منها في جنوب لتوانيا وشرقها، إذ نحن نتجه الآن جهة الشمال إلى (لاتفيا).

وقد قطعنا الآن مائة كيلو متر وما تزال العمارة على الطريق قليلة، وبقي على الوصول إلى مدينة (ريقا) عاصمة لاتفيا نحو مائتي كيلومتر، ولكن الحدود قبلها بكثير.

ثم ضاق الطريق لأن الجزء الأيسر منه وهو الغربي لا يزال تحت الإنشاء، وقد رصوه، ولم يزفتوه بعد.



منزل في الطريق بين فيلنوس وريقا

ومن المناظر الغريبة فيه أن أكوام التراب الذي كانوا قد جمعوه من الطريق أو أحضروه أصلاً له قد ركبته الأعشاب البرية حتى جللته فصار أخضر كالأرض، إلا أنه ليس فيه أشجار.

مدينة بانافيجيس:

وقفنا عند محط للوقود هي أول محطة نراها على الطريق، وذلك أن المحطات ليست ظاهرة الوجود على الطريق، وربما كانت بعض اللافتات تشير إليها، لأن هذه المحطة داخلة عن الطريق بحوالي مائة متر.

وتقع المحطة في ضواحي مدينة (بانا فيجيس)، وهي أيضاً أول مدينة مهمة يمر بها الطريق منذ أن غادرنا العاصمة (فيلونس)، وهي كبيرة يبلغ عدد سكانها أربعمائة ألف نسمة، فيهم (٢٠٠) من يهود الخزر الذين جاؤوا إليها من جبال القوقاز، وليسوا من اليهود الأصلاء فيها، وليس فيها مسلمون. وعلى ذكر اليهود يقولون إن مجموعهم في لتوانيا في الوقت الحاضر يبلغ خمسة آلاف، وكان عدد اليهود فيها قبل الحرب العالمية الثانية (٣٠٠) ألف.

لم نقف في داخل المدينة، وإنما اجتزنا مع شارعها الرئيسي الذي هو امتداد الطريق الإسفلتي الذي كنا نسير عليه، ومع ذلك رأيناه في داخل المدينة أسوأ وأضيق مما هو عليه خارجها، فليس فيه طريق للذاهب من السيارات منفصل عن طريق الآيب على سبيل المثال، وإنما فصلوا بين الاتجاهين بخط أبيض.

ومر الطريق فيها فوق جسر على نهر صغير.

وقبل الخروج منها اضطرت سيارتنا للوقوف من أجل قطار كان على وشك أن يقطع الشارع، ووقف جندي يمنع السيارات عن المرور مع أنه من الواضح أن القطار مقبل، وأن المرور ممنوع من وجود إشارات ضوئية حمراء كبيرة تضاء لهذه المناسبة وتطفأ بعد ذلك.

وقد رأيت المارة فيها لا يختلفون في المظهر عن أهل (فيلونس) من حيث اللون الأبيض، والشعر الأشقر، والرشاقة في الأجسام، والذوق في الهندام، وشيء مهم آخر وهو أمارات النقص في الغذاء على أكثر الوجوه.

وفي ضاحية فيها بعيد مغادرة المدينة منازل نوّه المرافقون بأنها بيوت شخصية وليست حكومية، وهي بيوت ذات طابقين مسقوفة بسقوف مسنمة حادة التسنيم، أكثرها غير بهيج المنظر، مع أنها جديدة لأن الإمكانات المالية لديهم غير متوفرة.



المؤلف في الطريق بين فيلونس وريقا

وأما ريفها الذي رأيناه بعدها مباشرة، فإنه الريف اللتواني بخضرته المعهودة، إلا أن عمارة الحقول تقريباً أكثر، والأبقار التي ترعى فيها أكثر أيضاً.

ومن الطريف أننا رأينا عدداً من الأبقار راعيتها فتاة جميلة جداً ليس على مظهرها أي شيء من مظاهر القشف والخشونة التي تكون في سكان الريف في البلدان الحارة.

وليس البقر هنا هو الوحيد؛ بل بعض الخراف التي هي صغيرة وقليلة العدد، كما رأيت بعض الخيول القوية الغليظة أي غير الرشيقة، وهي تشبه

الخيول المغولية كما سبق.

وقبل الوصول إلى حدود لاتفيا أوقف السائق حافلته، ودخل إلى الغابة ليبول ويدخن؛ لأنه لم يكن يدخن معنا في السيارة، وكذلك فعل الأخ (أدس)، أما أنا فإنني انتهزت الفرصة والتقطت صوراً للطريق، ولمبنى ريفي كبير.

وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء، والشمس حية.

على حدود لاتفيا:

وحدود لاتفيا هي الحدود البرية ما بين لتوانيا ولاتفيا، فقد وصلناها في السابعة والربع، وقد نزل السائق فسلم جوازاتنا لضابط في محراب (كشك)، ولم ننزل نحن فختمها من دون أن يرانا، وأهم مبنى في مركز الحدود اللتوانية مكتب على هيئة الخيمة أحمر اللون، وهو من الخشب المصبوغ.

وبعد ٨٠ متراً من ذلك وصلنا مركز الحدود اللاتفية، يفصل بينها وبين حدود لتوانيا هذه المسافة الضيقة من الفراغ.

وقد نزل السائق ومعه الأخ (أدس) من السيارة معهم الجوازات، فأنهوا كل شيء بسرعة دون أن يرونا إلا ونحن جالسون في السيارة مع أنها حافلة صغيرة.



لاتفيا



لاتفيا Latvia:

تقع جمهورية لاتفيا على بحر البلطيق في شمال شرق أوروبا، وتعرف بلاد الكهرمان لوجود كهرمان كثير في شواطئها البحرية.

وتبلغ مساحتها ٦٣،٧٠٠ كم٢، ويغطي سطحها سهول منخفضة ومستنقعات تنتشر فيها البحيرات والمجاري المائية، وتكسوها غابات شاسعة، وأهم أنهارها نهر غاويا Gauya الذي يبلغ طوله ٤٥٢كم، ثم نهر داوغافا Daugava ٣٥٧كم، وأما أكبر البحيرات فهي بحيرة لوباناس Lubanas ٩٠كم٢.

لقد بلغ عدد سكان لاتفيا ٢،٧٢٨،٠٠٠ نسمة عام ١٩٩٢م، ويتكون السكان من العناصر الآتية:

اللت Letts وهم سكان لاتفيا الأصليون ٥٢٪.

الروس ٣٤٪.

الروس البيض ٤,٥٪ .

الأوكرانيون ٣,٥٪.

البولنديون ٢,٥٪.

وأما الديانة السائدة فهي البروتستانتية (اللوثرية)، والأرثوذكسية، والكاثوليكية.

ويرجع (اللت) إلى العنصر الآري الذي استوطن لاتفيا في القرن العاشر الميلادي، وكانت لاتفيا تابعة لمملكة السويد حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ثم احتلها الروس، ولكنها استقلت عنهم في عام ١٩١٩م، ثم ضمت إلى الاتحاد السوفيتي في ٥/ ٨/ ١٩٤٠م، وأخيراً أعلنت استقلالها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في ٢١ /١/١٩٩١م.

يعتمد اقتصاد لاتفيا على الزراعة؛ حيث يزرع الشعير والذرة وبنجر السكر والبطاطس والكتان، ويمارس الرعي، وتقدر المواشي بنحو ١،٥ مليون رأس من البقر، و١٧٠ ألفاً من الغنم.

والصناعة في لاتفيا تقوم على صناعة الحديد والصلب والبتروكيماويات والورق والزجاج.

وأهم المدن فيها هي ريقا Riga العاصمة التي يبلغ عدد سكانها ٩٥٠ ألف نسمة، وداوقا بيلس Daugavpils ١٥٠ ألف نسمة، وليبايا Liepaia ١٢٠ ألف نسمة.

المسلمون في لاتفيا:

القول في حال المسلمين في (لاتفيا) كالقول في حال إخوانهم في لتوانيا بأنه لم يبق من الإسلام عندهم إلا اسمه، أما القرآن فإنه لم يبق لديهم حتى رسمه، بمعنى أنه لا يكاد يوجد عندهم مصحف واحد، وبخاصة في زمن الشيوعية، ومع ذلك صبروا وصابروا معتبرين أن الإسلام هو رمز وجودهم، وأنه لولاه لاضمحلوا في السكان الآخرين.

ويبلغ عدد المسلمين في مدينة (ريقا) العاصمة خمسة آلاف مسلم، ولكن ليس لديهم من مقومات الإسلام شيء، فليس لهم مسجد إلا شقة استأجروها لا يصلون فيها، وإنما فيها فصل دراسي لتعليم شيء من مبادئ لغتهم، أما الإسلام فإنهم لا يعرفون منه شيئاً، حتى إن إمامهم لا يعرف كم عدد ركعات الظهر كما سيأتي ذكره في اليوميات.

ومعظم المسلمين من التتار، وفي البلاد مسلمون من مناطق مسلمة في الاتحاد السوفيتي مثل مناطق وسط آسيا.

ومعظم المسلمين أولئك لم يحصلوا على الجنسية اللاتفية لكونهم كانوا معتبرين ممن جاءوا مع الاحتلال السوفيتي المكروه، مع أن الحصول

على الجنسية الآن سهل لمن ابتغاه، وكان في الماضي القريب أكثر سهولة، وسيأتي الحديث المفصل عن أحوال المسلمين في اليوميات بإذن الله.

داخل لاتفيا:

لم يستغرق وقوفنا وإنهاء المعاملات لجوازاتنا، وهي خمسة في مركزي الحدود الليتوانية واللاتفية إلا اثنتي عشرة دقيقة، وهي مدة قصيرة جداً تدل على عدم التعقيد في الأمور عند القوم، ورغبتهم في تسهيل الدخول والخروج؛ إضافة إلى كون الموجودين في الحدود كانوا قلة غير مألوفة في الحدود البرية بين بلدين متجاورين.



الحدود بين لتوانيا ولاتفيا

ولا شك أنه لو كانت هذه الحدود البرية بين بلدين عربيين لاحتاج الأمر إلى مضاعفة المدة مرات ومرات.

والأمر اللافت للنظر أننا لم ننزل من السيارة، وأن السيارة ليست سيارة أجرة يتردد سائقها على الحدود ويفترض أنه يعرف الأمور المتعلقة بالجوازات، وأن الضباط يعرفون أنه يعرف ذلك.

لم نلاحظ أن شيئاً تغير في طبيعة الأرض إلا ما كان من غلبة اللون الأحمر في الطلاء، فمعظم المباني والمنازل مطلية هنا بلون أحمر، والمراد بذلك هذه المنطقة التي تلي الحدود مباشرة.

ثم وقعنا في ريف خالٍ من المنازل.

ولم يزدد عدد السيارات في الطريق، كما لاحظنا أن البحيرات الصغيرة التي رأيناها كثيرة في ريف لتوانيا هي هنا قليلة أو نادرة.

بلدة باوسكا :

مر الطريق ببلدة اسمها (باوسكا)، فيها أبنية حكومية متعددة الطوابق من التي سميتها (البنايات الشيوعية) من كونها موجودة في كل المدن الشيوعية، وهي الحكومية التي تكرر ذكرها، إلا أنها هنا حمراء الطلاء وإن كان يوجد خلفها أبنية بيض.

واجتزنا جسراً فوق نهر ضحل المياه متسخ المجرى.

وأما الناس الذين رأيناهم ونحن في السيارة، فإنهم قلة لا يختلفون في اللون عن أهل لتوانيا، وإن كانوا في الواقع أمة أخرى ذات لغة مختلفة عن لغة لتوانيا، وحتى المذهب الديني مختلف بين البلدين، إذ أكثرية الناس في لتوانيا كاثوليك، وفي لاتفيا هذه بروتستانت.

وحتى مذهب الحكام في البلدين مختلف، فهو في لاتفيا وطني غير شيوعي، وفي لتوانيا اشتراكي يسيطر عليه الشيوعيون الذين أعلنوا أنهم طلقوا الشيوعية، وتمسكوا ببعض المبادئ الاشتراكية، وإن كان رئيسها في الوقت الحاضر هو الرئيس الذي كان يمثلها في زمن الحكم الشيوعي.

كانت السيارة تمعن في الطريق ذاهبة شمالاً، والريف الأخضر الكثيف الخضرة الذي ترعى فيه قطعان الأبقار السمينة هو السائد.

وأكثر ما نراه هنا الآن الأعشاب التي جمعت في أكوام ضخمة كأنها الغرف الريفية المتطامنة، وهي التي يدخرونها للشتاء لإطعام الماشية منها عندما تنعدم الأعلاف حين تغطي الثلوج وجه الأرض، وترين عليها أشهراً، فلا يجد الحيوان ما يأكله إلا ما كان مدخراً من أيام الصيف والخريف، ومثل هذه الأكوام من الأعلاف لم نرها في لتوانيا إلا على قلة.

وشيء آخر، وهي أنهم هنا غرسوا على جانبي الطريق أشجار التفاح لا يخالطها غيرها في أكثر المواضع، وهذا له مثيل في أذربيجان حيث تكون معظم الأشجار في الطريق من الزيتون، وفي وادي فرغانة وخوارزم تكون أشجار التوت الذي يربى عليه دود القز، ومثل شوارعنا في المدن حيث صرنا نغرس فيها النخل المثمر.

ورأيت لأول مرة حقلاً مزروعاً بخضرات للطبخ، وكنت أعجب من قلة الخضرات في هذا الريف الخضر، وأعجبني منظر محطة من محطات الحافلات في الريف قد أقاموها من الخشب المطلي باللون الأحمر.

بلدة سكافا:

في الثامنة والربع والشمس تسقط في بحر البلطيق الذي يقع عنا جهة الغرب، وهي جهة اليسار من الطريق، كنا ندخل في حاشية بلدة اسمها (سكافا)، تبعد عن مدينة (ريقا) العاصمة بـ ٤٢ كيلو متراً.

وقد ضاق عندها الطريق فصار لا يتسع لأكثر من سيارتين في كل اتجاه من الاتجاهين، ولم نتلبث في هذه البلدة الصغيرة لعدم وجود أي مشروع إسلامي فيها، بل لعدم وجود جماعة مسلمة ظاهرة.

وفي ضاحيتها خط للقطار تجاوزناه لأنه ليس هناك قطار مار به.

شفق الشمال:

والشفق هو النور الذي يكون بعد غروب الشمس، يضمحل بعد المغرب شيئاً فشيئاً حتى يذهب كله، ويختلف طوله وقصره حسب خطوط العرض لكل بلد، وحسب الفصول من صيف إلى شتاء.

والعادة أنه يستمر في بلادنا ساعة وثلثاً، أما في البلدان الشمالية فإنه يطول في الصيف حتى يبلغ طوله في بعضها أنه لا يتلاشى أبداً، وإنما يستمر في الغرب حتى يظهر نور الفجر في الشرق، وهذه هي الحال بالنسبة إلى ما كان من روسيا شمال موسكو، ومنه مدينة (بطرس بورج) التي كانت تسمى (لينين قراد) في العهد الشيوعي، ويصير كذلك حتى في بلدان إسلامية شمالية مثل بلاد البشقردز المعروفة الآن ببشكيريا، وعاصمتها أوفا، ومثل تتارستان التي عاصمتها قازان، وهما داخلتان من الناحية الإدارية في جمهورية روسيا الاتحادية، وغياب الشفق مهم من الناحية الفقهية؛ لأن دخول وقت صلاة العشاء يبدأ من غياب الشفق.

ذكرني هذا ما رأيته اليوم حين لبثنا فترة بعد غروب الشمس وما تزال السماء منيرة، وكأنما الشمس لم تغرب، وإنما أوشكت على الغروب.

هذه ريقا:

في الثامنة والثلث كنا ندخل مدينة (ريقا) عاصمة جمهورية لاتفيا، وهي أكبر عواصم جمهوريات البلطيق الثلاث، وهي ميناء مهم على بحر البلطيق؛ لذلك رأينا فيها جسوراً عديدة طويلة مقامة على الماء الذي هو ماء نهري وماء بحري.

وقد استغرق سفرنا من فيلونس إلى ريقا ٤ ساعات تقريباً فيها وقفتان غير الوقفة القصيرة عند الحدود.

ولبثنا نسير فترة من الوقت في شوارع ريقا الواسعة الممتدة، ونحن نبحث عن فندق أخبرنا الإخوة أهل ريقا بالهاتف أنهم حجزوا لنا فيه، فلما دخلناه وجدناه فندقاً شيوعياً، والفنادق الشيوعية كالأبنية الشيوعية اصطلاح من عندي، وهو يدل على سوء حالة الفندق إلى درجة من الإهمال وعدم النظافة لا يكاد يوجد لها مثيل في البلدان المتخلفة.

فالمراد بالفندق الشيوعي الفندق المخصص لعامة الشعب، وليس الذي يسكن فيه كبار المسؤولين من الشيوعيين، ويسكنون فيه ضيوفهم، فذلك يكون جيداً في الغاية بعيداً عن المدينة وإن لم يصل في جودته إلى درجة الفنادق في البلدان الحرة.

ومن الأشياء السيئة التي تكون في الفندق الشيوعي أن حماماته العامة تكون قذرة محطمة أكثر الأشياء فيها يحتاج إلى إصلاح، والمراد بذلك الحمامات خارج الغرف التي يستعملها أكثر من واحد، أما الحمامات التي قد تكون في الغرف وليست بالكثيرة فإنها تكون نظيفة وغير قذرة، ولكنها تكون محطمة يحتاج أكثر ما فيها إلى إصلاح.

ولم يكن باستطاعتنا أن نسكن في هذا الفندق السيئ الذي إلى جانب سوء حالته فإنه كئيب خافت الأنوار بغير هدوء.

وذهبنا نلتمس فندقاً آخر، فأسلمنا شارع من شوارع ريقا إلى شارع آخر، ثم إلى شوارع أخرى من شوارعها التي تعج بالحركة والسيارات أكثر مما في جارتها البلطيقية التي تركناها فيلونس، وكل فندق نجده يعتذر أهله بعدم وجود غرفة خالية، وكأنما نحن في لندن أو باريس.

كان الرفاق ينزلون ويبحثون عن الفندق وأكون في السيارة أنتظر رجوعهم، ولكنهم عندما لا يجدون مكاناً في فندق يذهبون على أقدامهم إلى

فندق آخر، وأنا أحملق في هذا الليل المنير في السيارات والأناسي الذي يمرون أو يقفون سياراتهم بقرب سيارتي.

وقد لاحظت كثرة السيارات وإن لم تقارب مثيلاتها في أوروبا الغربية أو في بلادنا العربية كالرياض على سبيل المثال.

فندق لاتفيا:

وفقنا للعثور على ثلاث غرف في (فندق لاتفيا)، وهو فندق ضخم من أكبر الفنادق مساحة، وأكثرها غرفاً، وله مقدمة واسعة.

ومن الغريب أنهم قسموا الفندق إلى فئتين: فئة أربع نجوم، وفئة ثلاث نجوم، وهو فندق واحد، ولكنهم أرادوا من ذلك أن الغرف فيه ليست على مستوى واحد، واستأجرنا منهم غرفاً بـ ١٢٢ دولاراً أمريكية للغرفة الواحدة لليلة الواحدة.

فوجدناهم جددوا غرفه وممراته حتى غدت مشابهة للفنادق في أوروبا الغربية، ومن ذلك أن غرفتي في الطابق السابع واقعة في جناح لا تستطيع أن تدخل منه إلا إذا أدخلت مفتاح الغرفة، وهو بطاقة (إلكترونية) معتادة في فنادق الدرجة الأولى في البلاد غير الشيوعية في الشرق والغرب، فيفتح لك الباب، وتذهب منه إلى غرفتك فتدخل فيها البطاقة (الإليكترونية) نفسها، فتفتح لك.

وجميع أثاث الغرفة وما فيها حديث، وفيها تلفاز ملون كبير موصول بطبق، لذلك ترى منه محطات التلفاز العالمية مثل محطة: سي إن إن الأمريكية، وليست الغرفة واسعة مما ذكرني بفنادق لندن وباريس.

ومن الأشياء التي قلدوا فيها إدارة الفنادق في الولايات المتحدة الأمريكية أنهم لا يعطونك مفتاح الغرفة حتى تدفع الأجرة للمدة التي تريدها مقدمة، وأقل ذلك أجرة ليلة واحدة، وربما كان ذلك لكون الفندق كبيراً

تصعب معرفة من يدخل منه أو يخرج.

وقد استرحنا في إحدى غرفنا على شاي صنعناه فيها، وجعلنا معه مما أحضرناه من بلادنا من تمر وكعك ونحوه، فاستغنينا بذلك عن العشاء.

يوم الأربعاء: ٩/ ٤/ ١٤١٥هـ ١٤/ ٩/ ١٩٩٤م.

صباح ريقا:

أزحت ستارة النافذة عن غرفتي التي تقع إلى جهة الشمال، فأسفر المنظر مع غروب الشمس عن مبانٍ ضخمة، منها كنيسة قديمة مجددة، وأبنية قديمة كانت موجودة قبل الحكم الشيوعي الروسي الذي حدث في عام ١٩٤٠م، وذلك ظاهر من أطرزتها الفخمة، وعن حديقة مقابلة للفندق يفصل بينهما شارع رئيسي ولكنه غير عريض، وأهم ما في الحديقة أشجار ضخمة باسقة في السماء مما يدل على قدم غراسها، وعلى أن البلاد لا تشهد في العادة أعاصير أو ريحاً عاتية، وإلا لما بقيت حتى وصلت إلى هذا الحد من الطول.

نزلنا من غرفنا في السابعة والنصف لتناول طعام الإفطار الذي هو داخل في أجرة النوم، فرأيت مطعم الفندق مزدحماً بجماعات من السياح ذوي المظهر الأوروبي، وربما يكون منهم بعض الأمريكيين، وهم من الكثرة بحيث إنني لا أتذكر أنني رأيت مثلهم في مطعم واحد أثناء الإفطار منذ مدة طويلة، حتى إن خدم المطعم على كثرتهم كانوا منهمكين في إحضار الأوعية المليئة بأنواع الطعام، ونزلاء الفندق يخدمون أنفسهم على عادة المائدة المفتوحة، ولكنهم من الكثرة بحيث تصعب ملاحقة طلباتهم من الأواني المليئة بالطعام.

وطعامهم ليس فاخراً، وإنما هو معتاد من الأطعمة التي تكون في الفنادق العالمية، ولم أر فيه شيئاً محلياً متميزاً.

وجميع من في المطعم من البيض.

جولة في مدينة ريقا:

ليس المراد بالجولة هنا الجولة السياحية على أهميتها، وإنما المراد الذهاب إلى أنحاء من المدينة لرؤية بعض الأشياء المتعلقة بالمسلمين.

كانت الجولة بصحبة الأخ (الدوس سابتو بن كريموف)، وسابتو هي (ثابت) العربية، وكريموف تعني ابن كريم؛ لأن (أوف) من الروسية، وتعني (ابن أو آل كريم).

كنا قد هاتفنا الأخ (الدوس) البارحة بعد وصولنا ريقا وواعدناه الحضور إلينا في التاسعة من هذا الصباح، وقد حضر بالفعل ومعه اثنان من الإخوة المسلمين اللاتفيين - على ثقل النطق بهذه النسبة -.

وهو تتاري مثل سائر المسلمين في هذه البلاد، وإن كان يوجد مسلمون آخرون من غير التتار، ولكنهم ممن كانوا حضروا بعد الاحتلال الروسي الشيوعي للبلاد في عام ١٩٤٠م؛ حيث ضم الروس هذه الجمهورية مع جمهوريات البلطيق الاثنتين الأخريين، فأصبح الناس فيها من رعايا الاتحاد السوفيتي، لذلك حضر إليها طائفة من الإخوة المسلمين من مواطني الاتحاد السوفيتي السابق.

غير أن أهل البلاد في فورة الوطنية بعد الاستقلال نظروا إليهم كما ينظرون إلى بقية الذين قدموا إلى بلادهم من الاتحاد السوفيتي، وأكثرهم من الروس، نظرة غير ودية.

لذلك لم يقبلوا بأن يمنحوهم الجنسية اللاتفية؛ بل اعتبروهم أجانب مقيمين برخص للإقامة، وانتهزوا أية فرصة تسنح لإبعادهم عن بلادهم.

ولذلك قال لنا الأخ (الدوس): إنه لم يحصل على الجنسية اللاتفية من المسلمين إلا ٤٪ ، أما المسلمون القدماء الذين كانوا موجودين في البلاد قبل الاحتلال الروسي وكلهم من التتار، فإنهم لم يواجهوا أية مشكلة فيما يتعلق بالحصول على الجنسية، ولكنهم قلة لا يزيدون في مدينة (ريقا) على ٤٩ أسرة، ويوجد غيرهم في أنحاء أخرى من لاتفيا.

أما عدد المسلمين جميعهم في ريقا، فذكر الأخ (الدوس) أنه يصل إلى

خمسة آلاف مسلم، كذا قال.

والأخ (الدوس) هو رئيس الجماعة التتارية المسلمة في البلاد، ولكنه وكثيرين أمثاله ينظرون إلى الإسلام كما لو كان صفة لهم، أو قواماً من قوميتهم، وإن لم يصرحوا بذلك، لأن الإسلام كان ميزة وجودهم ورمز عزهم عندما كانت لهم دولة قوية في هذه المنطقة، وما كان عنها جنوباً حتى بلاد القرم وشرقاً حتى جبال الأورال شمالاً.

وقد حافظوا على بقائهم مسلمين بالاسم منذ حوالي ستة قرون انقطعت فيها صلتهم بالعالم الإسلامي، وتلاشت فيها معرفتهم بالدين الإسلامي حتى جاء الحكم الشيوعي فأجهز على ما بقي من مفهوم صحيح للدين في النفوس، ومع ذلك بقي الدين الإسلامي أو (الإسلام) مجرداً بمفهومه لديهم بأنه الصفة التي تميزهم عن غيرهم من عامة أهل البلاد المسيحيين.

ولذلك رأيت الأخ (الدوس) يتكلم عن مقابر التتار أكثر مما يتحدث عن المساجد، مع أنه لا يوجد في ريقا العاصمة أي مسجد، ولم نسمعه يتحدث عن وجوب العمل على بناء مسجد فيها.

ولاشك أن الأمر يحتاج إلى توعية، بل إلى دعوة إسلامية مخلصة واعية بغية إعادتهم إلى العمل بالفرائض الإسلامية، وتصحيح المفهوم الديني عندهم بأن الإسلام قول وعمل وعبادة وانتماء، بل إنه معاملة وسلوك.

أطول شارع في ريقا:

بدأت جولتنا في التاسعة والنصف، فانطلقنا مع أهم شوارع المدينة وأطولها إذ يبلغ طوله ٢٠ كيلو متراً، وهو الذي عليه فندقنا، ويسمونه الآن (شارع الحرية)، وأسموه بذلك بعد الاستقلال عن روسيا، وكان اسمه إبان الحكم الشيوعي (شارع لينين)، وقد عرفنا من عادة الشيوعيين أنهم يطلقون اسم لينين على أهم شارع في المدينة، وأهم ميدان فيها.



شارع في مدينة ريقا

وعلى هذا الشارع أبنية ضخمة أكثرها كانت موجودة قبل دخول الشيوعية إلى البلاد، أسرع الأخ (الدوس) على عادته في السرعة في الكلام إلى القول بأن المعيشة هنا غالية مع أن الأسعار غالية أيضاً، وأن الرواتب متدنية بحيث أن رواتب العمال تتراوح ما بين خمسين إلى مائة دولار، ومع ذلك لا توجد وظيفة متوفرة، لأن المصانع التي كانت موجودة كانت تصنع أشياء ترسل إلى الاتحاد السوفييتي، وقد امتنعت روسيا عن شرائها الآن، فتوقفت أكثر المصانع، وذلك مثل مصانع العربات، وأجهزة الهاتف والاستقبال الإذاعي، وضرب مثلاً على ذلك بمصنع لأجهزة الاستقبال (الراديو) فقال: كان في ذلك المصنع الذي يقع في ريقا (٣٠) ألف عامل، والآن ليس فيه إلا ١٥٠٠ عامل، وعلى هذا تقاس بقية المصانع.

وقد استمر سير السيارة في (شارع الحرية) هذا والأخ (الدوس) يواصل الحديث عن أمور بعضها مهم لها، وبعضها يظن هو أنه كذلك، وهو عكس مرافقنا الذي لا يزال معنا الأخ (أدس) الذي هو صموت لا يتكلم إلا بحساب، وتبين لنا فيما بعد أن بعض ما قاله لنا غير دقيق فصححناه عن غيره.

وكلاهما تتاري من إخواننا الذين قدمنا القول بأنهم ليسوا من التتار الذين هم من المغول، وإنما هم من بقايا رعايا إمبراطورية (التون أورده) الإسلامية التي أنشأ أساسها المغول الذين هم التتار في الحقيقة، فأطلق الروس على هؤلاء الإخوة اسم (التتار)، وإن لم يكونوا مغولاً.

ومر الطريق في الشارع فوق جسر على طريق للقطارات مبلط بالحصى الصغار.

كان الطريق مرصفاً داخل قلب المدينة إلا أنه عندما فارق القلب التجاري منها ذهبت أرصفته، وحلت محلها أعشاب وحشية، ولا نقول: برية، لئلا يظن أنها في البرية وهي الخلاء، فنحن ما نزال داخل المدينة، وإنما المراد بالوحشية التي لم تغرس أو تستنبت، وإنما نبتت عفواً لكثرة الأمطار ووفرة الندى في هذا الفصل الصيفي الدافئ.

ولكن مكان الأرصفة من الشارع فيه صف من الأشجار المغروسة المنسقة تفصل ما بينه وبين الأبنية المطلة عليه.

وفي هذا الشارع مثل بقية الشوارع المهمة في المدينة عربات الترام والحافلات الكهربائية (الترولي باص).

ويتميز الأخ (الدوس) على رفيقنا (أدس) بكونه يعرف اللغة التتارية؛ لأن أصله من تتار قازان، ولذلك كان زميلنا الأستاذ رحمة الله بن عناية الله يتحدث معه بها دون واسطة.

بحيرة كيش:

عند مغادرة طرف المدينة وصل الطريق شاطئ بحيرة واسعة اسمها (بحيرة كيش)، وتقع على أيمن الطريق الذي سرنا معه، وهي واسعة إلا أنها ذات شعاب بحيث إن بعضها مختفٍ خلف أماكن منحنية، ولم نقف عند هذه البحيرة إلا لأخذ صورة تذكارية، وقد أخذنا طريقاً انطلق من الطريق العام ذكر أنه يذهب إلى روسيا الاتحادية، وأن حدود روسيا تبعد من هذا المكان بـ ٣٠٠ كيلو متر.



ريف ريقا

ثم سلكنا طريقاً فرعياً من هذا الطريق أيضاً حيث دخل غابة كثيفة متشابكة الأشجار، ورأينا فيها بيوتاً ذكر المرافقون أنها كانت لأسر العسكريين الروس الذين كانوا موجودين في هذه المنطقة، ولم يرحلوا منها إلا في ٣١ أغسطس الماضي.

وقد استمر الطريق في الغابة يماشي من إحدى الجهات شاطئ بحيرة (كيش).

في المقبرة:

كان الأخ (الدوس) قد قال لنا: إنه سيرينا مقبرة التتار، فظننا أنها مقبرة قديمة فيها كتابات تاريخية، أو تدل على شيء من ماضي المسلمين في البلاد، لذلك وافقنا على الذهاب لرؤيتها، ثم تبين أنها مقبرة حديثة كما سيأتي.

وتقع المقبرة وسط الغابة كأنها هي جزء منها لأن فيها أشجاراً ضخمة عالية، وعند الوصول إليها وجدنا صفاً من باعة الزهور الذين يبيعونها لزوار المقبرة حيث يشتري الزائر منهم باقة من الزهور يضعها على القبر الذي يزوره.



باعة الزهور عند المقبرة في ريقا

وأكثر هؤلاء المشترين - أن لم نقل إنهم كلهم - من غير المسلمين.

دخلنا إلى المقبرة الواسعة مع بوابة واسعة، فصرنا نسير بين القبور التي تظللها الأشجار الباسقة، وترتفع فوق بعضها صلبان، ولكنها ليست عامة على كل قبر، وإنما يوضع في أغلب الأماكن صليب كبير كأنه من وضع المسؤولين عن المقبرة يعتقدون أنه يكفي للقبور القريبة منه، والسبب في عدم وجود الصلبان على القبور أن الشيوعيين ملحدون ولا يؤمنون بدين، لذلك لا يوضع الصليب على قبر أحدهم إلا إذا وضعه قريب له دون أن يستشيره، وقد سرنا فترة على أقدامنا بين القبور غير المزدحمة، وقد صفت في صفوف منتظمة، وليس فيها ما هو مرفوع عن الأرض أكثر من شبر ما عدا شواهدها الحجرية مع أنها لغير المسلمين، حتى وصلنا إلى ركن خاص في المقبرة مكتوب عليه كلمة (تتارستا) ومعناها: التتارية بمعنى مقبرة التتار.

كان أهم مظهر يميز مقبرة المسلمين التتار هو وجود هلال كبير من الحديد غير متقن الصنع وضعوه في وسط الساحة التي فيها قبور، لأن القبور لا تزال قليلة في هذا المقبرة، لكونها حديثة الإنشاء، ولقلة عدد المسلمين قلة نسبية في المدينة، وقالوا: إن هذه المقبرة تعتبر الآن مقبرة مدينة ريقا كلها، وقد اختاروا لها هذا المكان الذي يبعد ٢٣ كيلومتراً من العاصمة وسط غابات عذراء خالية من السكان.

وقد رأينا فيها قبوراً كثيرة لغير المسلمين لكثرة عددهم إذْ يبلغ سكان ريقا قرابة مليون شخص، وقال لي أحد أهلها: إن سكانها ٩٧٠ ألف نسمة.

وقال الأخ (الدوس): لقد أحضرنا مهندسين ومختصين ضبطوا لنا موقع مكة المكرمة بالبوصلة الدقيقة، فوجهنا القبور إليها حيث جعلنا جهة القبور تقابل جهة مكة المكرمة.

ولم أر كتابة على قبور المسلمين القليلة فيها إلا واحداً عليه كتابة



بالروسية قرأها لنا المرافقون، تذكر أن أسمه (غايش بن حسين باري) وأنه توفي عام ١٩٩٣م.

وذلك لكون المقبرة حديثة، إذْ عرفنا أن ذوي الموتى يلبثون مدة في إعداد شواهد القبور التي يكتبون عليها في العادة اسم الشخص، وتاريخ ولادته ووفاته، وهذا إذا كانوا قادرين مالياً على ذلك، لأنه يتطلب نفقة لا يقوى عليها الجميع.

أما إذا كان ورثته فقراء، فإنهم يظلون مدة طويلة يجمعون المال لتجهيز الشاهد لقبره.

وذكروا لنا أنهم حصلوا على هذه المقبرة الخاصة للمسلمين في عام ١٩٩١م، أي بعد استقلال البلاد عن روسيا وتخلصها من النظام الشيوعي، وقبل ذلك لم تكن للمسلمين مقبرة خاصة إلا مقبرة قديمة مسورة في داخل المدينة سيأتي الكلام عليها.

ولم أر فرقاً بين قبور المسلمين وغير المسلمين فيما عدا الكثرة والقلة، إلا أن بعض قبور النصارى عليها الصليب، وبعضهم وضعوا زهوراً عليها، وأما المسلمون فإنه لا شيء من ذلك، كما أن قبور غير المسلمين على شواهدها صور المقبورين، وذلك على قلة أيضا.

وعندما رأيت اهتمام الأخ (الدوس سابتو) ومن معه من الإخوة المسلمين بهذه المقبرة قلت لهم:

يا ليتكم وجهتم مثل هذا الاهتمام أو بعضه للمسجد. فانبروا يذكرون من فقرهم وضيق ذات اليد عندهم ما هو معروف، وأكثر من ذلك.

قال الدوس: لقد أذهبت الشيوعية الأموال، وقضت على كافة الأعمال، واليوم النقود قليلة، والأعمال قليلة، والضرائب كثيرة حتى إن نصف دخل الأسرة يذهب إلى مصلحة الضرائب.

قالوا: وبلدنا ليس فيه معادن، وإنما فيها الأشجار التي ترونها ليس غير.

فقلت لهم: إن في بلادكم ثروة زراعية جيدة، وإنها لا تقل في هذا الأمر عن هولندا والدانمارك، والتي فيها العيش من أعلى مستويات العيش في العالم.

ولا شك أن مرجع ذلك لروح العمل الفردي، وللسياسة الحكومية التي عرفت كيف تستغل إمكانات البلاد الزراعية الاستغلال الأمثل.

وخرجنا من المقبرة ونحن نشعر أننا أنفقنا وقتاً أطول مما ينبغي إنفاقه فيها.

ووقفت على باعة الزهور، فإذا معظم زوار القبور هم من كبار السن ما بين رجال ونساء، ولم أر بينهم شباناً، وربما كان سبب ذلك أن الوقت الآن هو وقت عمل.

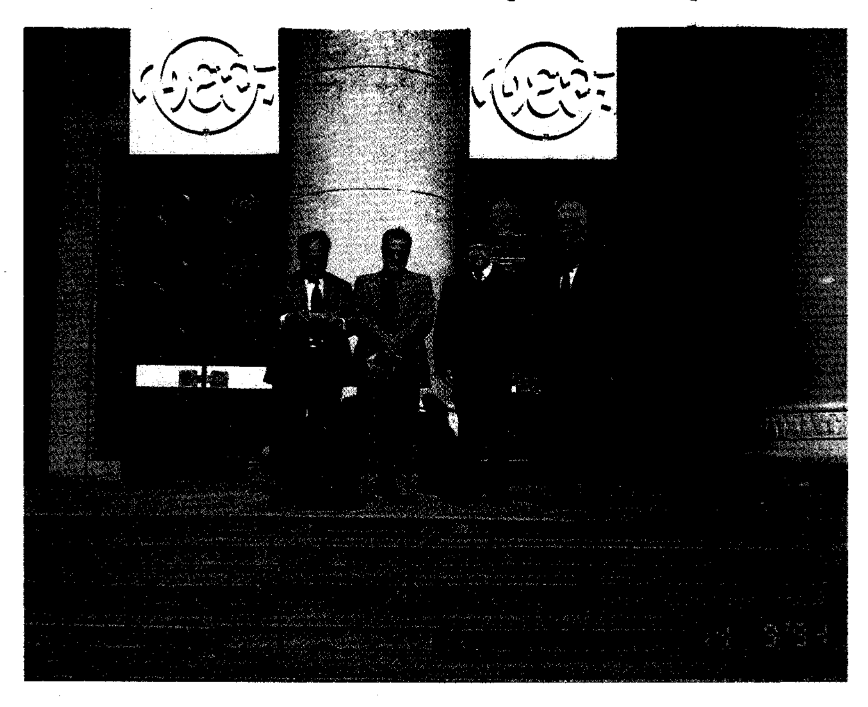
قلت للإخوة المسلمين: إننا لم نعلم أنكم ستروننا المقبرة الحديثة التي ليس فيها ما يستحق المشاهدة، إلا كون المسلمين حصلوا على مقبرة خاصة بهم غير مقبرة الكفار، وهذا أمر جيد لكن تمكن معرفته بالخبر دون المعاينة، فقالوا: سنذهب بكم الآن إلى مقبرة المسلمين التاريخية داخل المدينة، وقد انقطع الدفن فيها منذ مدة؛ لأنها قد امتلأت وهي أيضاً بجوار مقبرة لغير المسلمين، ولكنها منفصلة عنها.

مبنى المركز الثقافي:

عدنا إلى المدينة مع (شارع الحرية) الطويل الذي كنا خرجنا معه من العاصمة، حتى وصلنا مبنى روماني الطراز، تتقدمه أعمدة ضخمة، فأوقفوا السيارة، وهي سيارتنا التي كنا استأجرناها من فيلونس أبقيناها معنا.

وقال الأخ (الدوس) باعتزاز: هذا المبنى هو الذي نجتمع فيه للأعياد، وغمرني شعور بالفرح والسرور اعتقاداً مني أول الأمر أن الحكومة قد منحتهم المبنى

حتى يتخذوه لهذا الغرض، ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك، إذ قال: إنه لشركة (بيف)، وإنهم يستأجرونه حيث يجتمعون فيه للأعياد التي ذكر أنها ثلاثة، هي: الفطر والأضحى وعيد المولد النبوي، وأن المسؤولين في الشركة يسهلون الأمر، فيؤجرون لهم القاعة أو الصحن الذي في وسطه بـ ٤٠ لتس لاتفي، واللتس اللاتفي عكس الليتس الليتواني، فالليتواني يساوي الواحد منه نصف دولار أمريكي، وأما هذا (اللتس) اللاتفي فيساوي الواحد منه دولارين أمريكيين، وإذاً تكون أجرة هذه القاعة ثمانين دولاراً أمريكية للمرة الواحدة التي تستغرق حوالي الساعتين.



في مدخل المركز الثقافي الذي يصلي فيه المسلمون صلاة العيد في ريقا

إذ قال: نحن نفرش هذا المكان بالحصر، فيحضر ما بين ٤٥٠ إلى ٥٠٠ فيصلون، ويشربون الشاي في قاعة مجاورة من المبنى.

قال: وفي عيد الأضحى نطبخ لحوم الأضاحي ونأكلها، ولا ندري أذلك يكون في هذا المكان أم غيره؛ إلا أن الأخ (الدوس) قال بفخر وزهو وهو يشير

إلى جهة القبلة: إن القبلة هنا، كأن مجرد معرفة اتجاه القبلة أمر عظيم لا يفهمه إلا أشخاص من المسلمين متميزون، ويكفي للدلالة على ذلك أنهم لا يصلون الجمعة مطلقاً، حتى رئيس الجماعة (الدوس) لا يصلي الجمعة كما سيأتي، وليس لهم مسجد ولا مصلى إلا غرفة في مقر جمعيتهم لا يقيمون فيها صلاة الجمعة، مع أنها تتسع لعدد لا بأس به من المصلين، وستأتي تكملة للحديث عن هذا الموضوع.

وقد عرفت سر اعتزاز القوم بالصلاة في هذه القاعة، وهو أنهم كانوا ممنوعين من إقامة صلاة العيد، ولا يستطيعون استئجار أمثالها في زمن الشيوعية، لأن الحكومة هي التي تؤجر المباني كلها، لأنها تعتبرها ملكها ما عدا بعض البيوت الصغيرة الخاصة، وهي لا تؤجر المباني من أجل صلاة العيد أو غيرها من الأغراض الدينية.

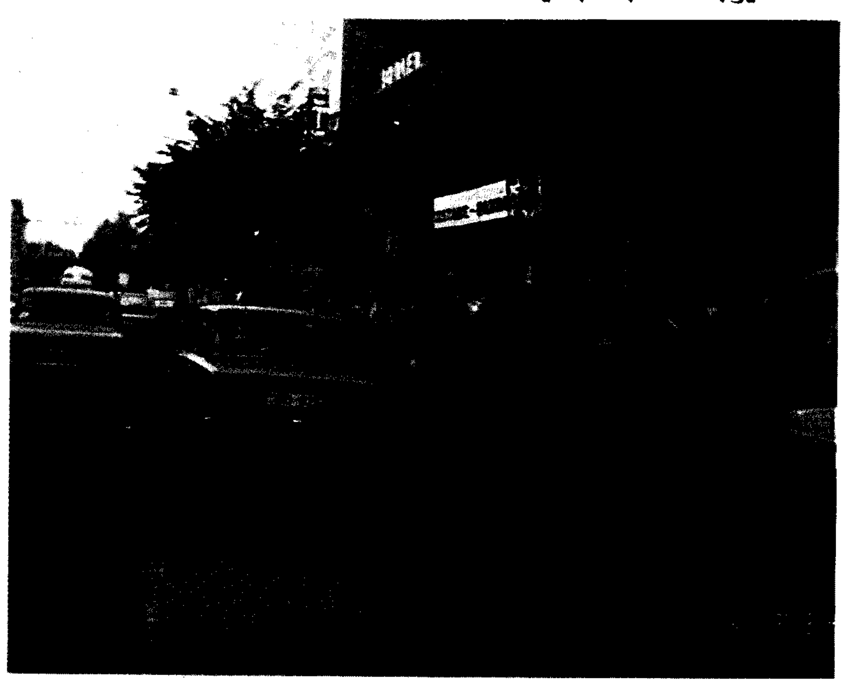
مثلما أنهم فرحون بتخصيص مقبرة حديثة للمسلمين لأنهم كانوا منذ أن دخلت الشيوعية بلادهم يدفنون موتاهم في مقابر غير المسلمين، لأنهم لا يستطيعون غير ذلك.

مقبرة المسلمين القديمة:

من هذا المكان الذي يفتخر به الإخوة المسلمون، ولو لم يكن لهم، ذهبنا إلى المقبرة القديمة للمسلمين، وذلك عندما كانوا أحراراً في أن يجعلوا لهم مقبرة خاصة بهم.

مررنا في الشارع بطريق لعربات (الترام) والحافلات الكهربائية (الترويلي باص)، وهي متوفرة هنا بكثرة؛ بحيث لا يجد المرء صعوبة في الانتقال بأجر زهيد من مكان إلى مكان في العاصمة، ورأيت على البعد مبنى أخضر الطلاء فقلت: أهذا مسجد قديم؟ فقالوا: لا يوجد مسجد قديم في العاصمة

مثلما أنه لا يوجد مسجد جديد.



ناس في انتظار وصول الحافلة في شارع في مدينة ريقا

ثم وصلنا حديقة ضخمة واسعة ذات أشجار بالغة الطول والضخامة، وإذا بها تجاور المقابر، والمقابر هما اثنتان: الكبرى منهما لغير المسلمين، وقد امتلأت منذ فترة، لذلك لا يقبرون فيها، ولكن القبور فيها واضحة معتنى بها. والصغرى منهما للمسلمين خاصة بهم ومنفصلة عن الأخرى، وقد امتلأت أيضاً مع أنها كبيرة.

كان أول ما استرعى انتباهنا لوحة بالحروف العربية مكتوبة على باب المقبرة تقول: (مسلمان قبرستاني) أي مقبرة المسلمين، وتحتها كتابة بالحروف الروسية، وتحتهما بالحروف اللاتينية التي هي الحروف المستعملة في جمهوريات البلطيق: (مسلماني كاي).

وعلى يسار الباب مكتوب باللغة التتارية التي هي شقيقة التركية، ولكن بحروف عربية: (مسلمان لر زيارتي).

بعض القبور مضى عليه وقت طويل وترك دون عناية، وإن كان لا إهمال فيها بمعنى أنه لا توجد قبور مبعثرة أو مندثرة، وكل القبور على شواهدها كتابات بالحروف العربية، إما الشهادتان، أو آية قرآنية، وهذا هو الأكثر، أو كتابة بالعربية وهذا هو الأقل.

وعلى بعضها جملة الاسترجاع (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وبعضها رسموا عليها الهلال رمز المسلمين.

ومن الأمثلة قبر كتب عليه أنه قبر (إبراهام كامويل ولادته في عام ١٨٤٠م ووفاته في عام ١٩٠٦م).

والقليل منها عليه صور المقبورين، وذلك لقدم هذه القبور، لأنهم اعتادوا في السنوات الأخيرة رسم صورة الميت على شاهد قبره، ولم يكونوا يفعلون ذلك من قبل.



شاهد على أحد قبور المسلمين في المقبرة القديمة عليه صورة الميت

وأما مقبرة المسيحيين المجاورة، وهي أكبر وأوسع بحكم كثرة السكان، فإنني رأيت على بابها صفاً من باعة الزهور الذين يبيعونها على من يزورون القبور.

تركنا المقبرة وشأنها، وانطلقنا قاصدين مقر جماعة التتار، فمررنا بحديقة واسعة يشقها شارع غير عريض، بل لاحظت أن كثرة الأشجار والأماكن المظللة في داخل المدينة يكاد يحجب البيوت فيها عن الأنظار.

واخترقنا قلب المدينة القديمة، فلاحظت كثرة الناس في الشوارع خلاف ما عليه الحال في فيلونس، وربما كان ذلك راجعاً إلى الفرق بين كثرة الناس هنا، وقلتهم قلة نسبية هناك.



ميدان رئيسي في ريقا

وكذلك يلاحظ المرء كثرة السيارات في المدينة من طراز (لادا) الروسي، وأقلها من صناعة أجنبية غير روسية، وأغلب ذلك السيارات الألمانية ولكنها قليلة.

وأما الناس فإن ألوانهم لم تختلف عما عليه ألوان أهل لتوانيا، فهم بيض، شقر الشعور إلا أن الجمال هنا أقل مما هو عليه في لتوانيا، أو هذا هو ما خيل إليّ، وإن كانت تجمع بين الفريقين الرشاقة المحببة في الأجسام، خلاف ما عليه الحال في بلاد الروس الأصيلة في موسكو وأمثالها.

ولم يزل عجبي يتجدد من كثرة الحدائق والأشجار بين المنازل وعلى الشوارع الداخلية القديمة.

ومن الأشياء اللافتة للنظر قلة الأطفال في الشوارع الداخلية التي يكثرون فيها في العادة، وربما كان ذلك لأن الوقت وقت دراسة مع أن الأولاد عندهم قليل، ولذلك يكاد يكون عدد سكان البلاد ثابتاً لا يزيد، بمعنى أنه لا يكاد يوجد فرق في العدد بين أعداد الولادات والوفيات فيها.

إلا أن الأطفال إذا رآهم المرء رأى عليهم مسحة الفقر، وبخاصة في الملابس مثلما يرى ذلك على سائر الناس، ويعجب إذا كان قد زار أوروبا الغربية وانطبعت في ذهنه صورة الناس البيض الأغنياء، أو ذوو المظهر الغني.

ومررنا فوق جسر عريض على نهر (داوغافا) الذي سيأتي الكلام عليه فيما بعد عندما نقف على ضفتيه، وهو نهر كبير، ومن جميع مناظر المدينة يتضح أنها مدينة كبيرة فخمة.

المركز التتاري الإسلامي:

دخلنا إلى المحل في مبنى كبير متعدد الطبقات، قد استأجروا منه شقة في الطابق الثاني الذي يصعد إليه مع درج عريض.

وجلسنا في مكتب رئيس الجماعة، وقال: إنه مكتب الجماعة لأنه الوحيد الذي يجتمعون فيه، ويتدارسون أمور دينهم، وحتى دنياهم، إلا أنهم يكادون يقصرونه على التتار الذين اكتسبوا على الزمان صفة القومية

المسلمة أكثر مما اشتهروا بتميزهم الديني.

وفي هذا المكتب خزانة فيها كتب بالعربية والروسية، وتفسير القرآن، منها كتاب (تعليم العربية لغير العرب) صادر في سيبيريا ومرسل إليهم من هناك.



في مكتب رئيس الجمعية الإسلامية التتارية في ريقا والأخوات المسلمات العاملات في الجمعية

ولعلك تعجب مثلي من هذا الدين الإسلامي الحنيف الذي جعل أناساً من المسلمين منعزلين في مجاهل سيبيريا الثالجة يطبعون كتاباً في تعليم اللغة العربية، رغم انعزالهم عن العرب والمسلمين انعزالاً كاملاً عقوداً عديدة من السنين، ورغم كوننا نحن المسلمين القادرين لم نتصل إلا بنفر منهم، فمثلاً لا أذكر أنه توجه إلى سيبيريا وفد من رابطة العالم الإسلامي التي هي أكثر المؤسسات الإسلامية اتصالاً بالمسلمين في أوطانهم البعيدة إلا وفداً واحداً برئاستي، توجه إلى الجنوب الشرقي من سيبيريا وحل في مدينة (ايركوتسك)، وتبرع لمسجدها الكبير، وقد ذكرت ذلك في كتاب " في

شمال شرق آسيا ".

ومع ذلك نراهم يجتهدون في أمور دينهم، ويطبعون هذا الكتاب في تعليم العربية لأبنائهم وبني قومهم.

وجدير بالعرب حتى غير المتدينين أن يسارعوا إلى نشر الإسلام بقدر ما يستطيعون عن طريق تشجيع المؤسسات الإسلامية، وإعطاء المنح الدراسية لأبناء المسلمين، لأن أول نتيجة لذلك هو انتشار لغتهم العربية انتشاراً لا تستطيعه اللغات الأخرى إلا ببذل جهود جبارة، وبإنفاق أموال طائلة متكررة.

وقد طبع هذا الكتاب في سيبيريا عام ١٩٩١م.

وقد حضر عدد من الإخوة المسلمين، كما حضرت خمس نسوة مسنات من العاملات في المركز، وقد عرفنا عن نساء التتار من قبل أن النساء أنشط من الرجال للعمل الإسلامي، أو هن لسن أقل منهم.

وأكثر المسلمات الحاضرات عاملات في المركز في وظائف مهمة مثل المحاسبة والسجلات أو نحو ذلك.

كما حضر الإمام - كما قدموه لنا - واسمه حسن نور الإسلام أو غلو.

وقد تكلم الأخ (الدوس) فقدمنا للحاضرين باللغة التتارية التي يفهمها أكثرهم، لأنهم جاءوا في الأصل من جمهورية (تتارستان)، أو من جمهورية (بشكيريا) التي تتكلم لغة (البشقردز) التي تسمى البشيكرية، وهي مشتقة من التركية القديمة مثل جارتها لغة تتارستان.

ومن ألطف ما قدمنا به إلى الإخوة المجتمعين أن قال: إنهم جاؤوا من قبلتنا من مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة.

نشاط المركز:

انطلق الأخ الدوس يخاطبنا وقومه يسمعون قائلاً: لقد أنشأنا جمعية التتار الإسلامية التي لها هذا المركز، وليس لها غيره في عام ١٩٨٨م، ونحن نهتم بالإسلام وبالشؤون الاجتماعية والثقافية التترية، ومنذ سنتين أو ثلاث صار المسلمون يأتون من المدن الأربع التي يوجد فيها مسلمون في هذه البلاد وذلك للاشتراك في الاحتفال بالأعياد والاجتماعات؛ لأن ليس لهم في تلك المدن الأربع أي نشاط إسلامي، فلا مساجد، ولا جمعيات إسلامية، ولا مدارس إسلامية.

قال: وقد أرسلنا شخصاً واحداً من إحدى تلك المدن إلى قازان عاصمة جمهورية تتارستان من أجل أن يتعلم الدين الإسلامي هناك.

وقال والقوم يوافقونه: كل هذا النشاط بدأ منذ خمس سنوات فقط، وقبل ذلك لا يوجد أي نشاط للمسلمين.

فسألته عن نشاطهم الآن فقال: تجهيز الميت المسلم، وتسمية المواليد، وعقد الزواج الشرعي، والاحتفال بالأعياد، والقيام على مدرسة الأحد، وهو فصل دراسي للأطفال يوم الأحد فقط.

وإذاعة برنامج ديني من الإذاعة الحكومية تتراوح مدته من ١٥ دقيقة إلى ٣٠ دقيقة، ويذاع مرة واحدة في الشهر، تمنحها الإذاعة الحكومية لنا بالمجان فنذيع فيه القرآن الكريم وشيئاً عن الإسلام باللغة التتارية، إلا أن الإذاعة الحكومية قد أبلغتهم أنه يجب عليهم أن يدفعوا أجرة هذه الإذاعة الشهرية القصيرة اعتباراً من شهر أكتوبر القادم، وإلا فإنه لا يسمح لهم بإذاعته.

لا يصلون الجمعة:

كأنما شعر الأخ (الدوس) أنني استعد للاعتراض على ما ذكره من

النشاط الإسلامي لأنه قليل فقال: نحن لسنا مثلكم، أنتم النشاط الإسلامي مستمر عندكم من عهد الرسالة المحمدية حتى الآن، وأما نحن فإن كل النشاط الإسلامي عندنا لا يزيد عمره على خمس سنين.

وكنت بالفعل أستعد لإلقاء سؤال مهم عليه إذ لاحظت أنه لم يذكر شيئاً عن صلاة الجمعة، ولا عن مسجد أو مصلى في البلاد، فقلت له: والجمعة؟ فقال: لا نصلي الجمعة، لأنه لا يوجد مكان للصلاة، وإيجار الأماكن غالية، فمثلاً هذا المكان الذي نحن فيه ندفع ٦ دولارات للمتر المربع الواحد أجرة في الشهر الواحد، فكيف نستطيع أن نستأجر محلاً لصلاة الجمعة؟

فقلت لهم: إنه يمكنكم أن تصلوا الجمعة في هذه الغرفة من المركز التي فيها المقاعد المدرسية، وقد خصصوها للفصل الدراسي، إنكم يمكنكم أن تبعدوا الكراسي منها وتصلوا فيها، فقال: هي ضيقة. قلت: إنها تتسع لبعض المصلين، فذلك أولى من كونكم لا تقيمون صلاة الجمعة، إنك قلت: إن في (ريقا) خمسة آلاف مسلم، وقال غيرك من الإخوة هنا: إنهم أربعة آلاف مسلم فقط، فكيف يكون هذا العدد من المسلمين ليس لهم مكان يصلون فيه الجمعة!.

ثم بينت لهم مكانة الجمعة من الدين، وأنها فرض عين على كل مسلم، وأن المسلم لا يكون مسلماً حقيقياً إذا ترك صلاة الجمعة من غير عذر.

وكنت أقول له ذلك والإخوة المسلمون التتاريون من رجال ونساء يسمعون ويفهمون، لأن زميلنا الأخ رحمة الله بن عناية الله يترجم ذلك إلى اللغة التتارية التي يفهمونها.

وقال أحدهم معقباً على كلامي: إن بعض الناس يصلون صلاة الجمعة

في البيت، فقلت له: إن صلاة الجمعة لا تصح في البيت لأنها اجتماع المسلمين للصلاة، وأما التي يصح أن تصلي في البيت هي الصلوات المكتوبة غير الجمعة، على أن لا يكون ذلك عادة مستمرة فتتعطل صلاة الجماعة في المسجد.

ثم كررت عليهم أنه لا بد من إيجاد مصلى يصلون فيه الجمعة بالأجرة في الوقت الحاضر حتى يستطيعوا الحصول على مصلى لهم، وقلت له: إن رابطة العالم الإسلامي مستعدة لدفع أجرة المصلى الذي يستأجرونه لمدة سنة كاملة.

ثم قلت لهم أحثهم على عدم التفريط في صلاة الجمعة: إن بعض المسلمين إذا لم يجدوا مكاناً يصلون فيه الجمعة صلوها في الحدائق أو الميادين.

فقال: هؤلاء في بلاد حارة، نحن بلادنا ثالجة لا يمكن الصلاة خارج البناء في الشتاء.

فقلت له: إنه يمكنكم ذلك في الصيف مثل هذا الوقت الذي نحن فيه، فهل فعلتم؟ فسكتوا.

وماذا عن المسجد؟

فسألتهم عن المسجد لماذا لم يسعوا في إيجاد مسجد يحصلون على أرضه أولاً، ثم يطلبون من إخوتهم المسلمين المعونة بعد ذلك على بنائه، وقلت لهم: إن الحالة الحاضرة فرصة مواتية؛ لأن الحكومة الآن يمكنها وهي لا تزال تملك الأراضي أن تعطيكم أرضاً للمسجد بالمجان، وربما لا يتيسر ذلك في المستقبل.

فقالوا: إن كل شيء قد أصبح غالياً الآن في المدينة، فإذا حصلنا على الأرض فإن المخططات والخرائط تحتاج إلى عشرة آلاف دولار على الأقل.

فقلت لهم: إنني أتعهد لكم الآن بأن تدفع رابطة العالم الإسلامي لكم هذا المبلغ إذا حصلتم على الأرض، وقد أعطيناهم عناويننا ليتصلوا بنا في حالة ما إذا حصلوا على الأرض.

غير أنني وجدتهم في حالة من عدم النشاط، ومن قلة الأمل، وذلك نتيجة لانقطاعهم عن العالم الإسلامي مئات من السنين، وعدم معرفتهم لما يمكن أن يقدم لهم من تبرعات لهذا الغرض، وكون إخوانهم المسلمين سيسارعون إلى ذلك إذا عرفوا حاجتهم إليه، وإخلاصهم في العمل، كما جربنا ذلك في أماكن كثيرة من العالم.

وقالوا: لقد قال لنا أخ قدم من إستونيا: إنه ليس أمامهم إلا الكتابة للملكة العربية السعودية لمساعدتهم.

فسألتهم عما إذا كانوا قد كتبوا من قبل لبلادنا أو غيرها يطلبون أي شيء ينفعهم في أمور دينهم؟

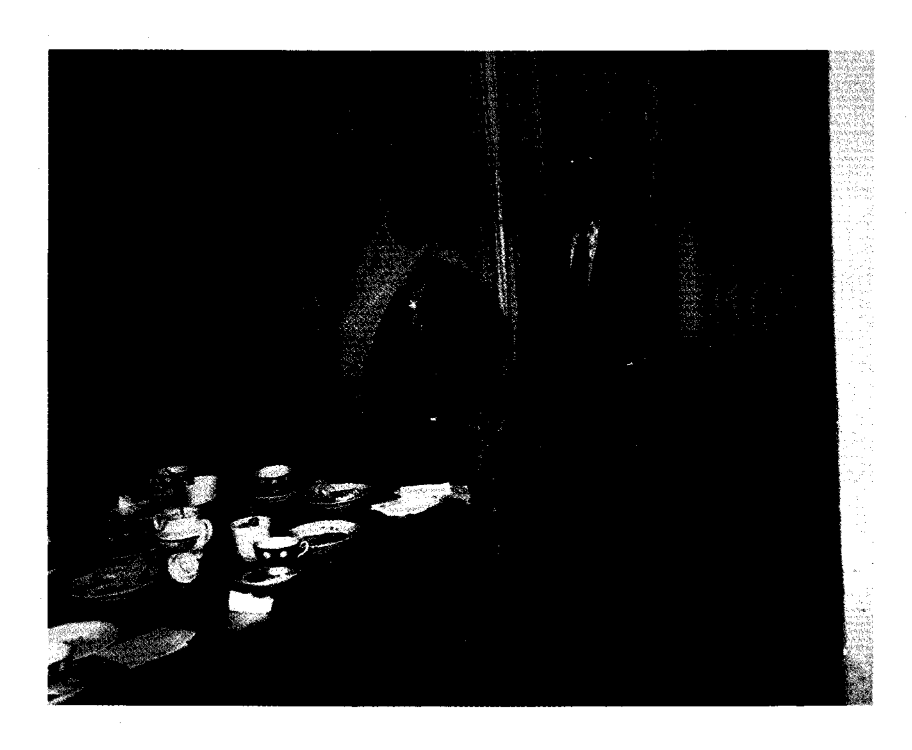
فأجابوا بالنفي.

مثال من أخت مسلمة:

كان وقت صلاة الظهر قد دخل، فأسرعت إحدى الإخوات تفرش سجادة للصلاة خلف باب المكتب من الداخل وتصلي الظهر وحدها.

فقلت لهم: إنكم يجب عليكم أن تأخذوا القدوة من هذه الأخت المسلمة التي صلت في المكتب، فتصلون في أي مكان تتاح لكم الصلاة فيه حتى الجمعة تصلونها كذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾.

ثم قال: نعم، هناك طلبة من العرب يدرسون في المعهد التكنولوجي، يصلون الجمعة في غرفة في المعهد، يحضر منهم حوالي ٢٥ ، وأذهب أنا والإمام حسن، فنصلي معهم الجمعة في بعض الأحيان.



مع الأخت المسلمة المسنة التي صلت وحدها في مقر الجمعية الإسلامية في ريقا

فقلت: هذا جيد، وحبذا لو صلى كل الإخوة معهم، وإذا ضاق بهم المكان يبحثون عن مكان أوسع منه، أو يبحثون عن مكان آخر في جهة أخرى من المدينة يكون قريباً ممن يريد الصلاة فيه من المسلمين.

وقد شددت عليهم في ذلك مرة ثانية، وقلت: إنكم مسؤولون أمام الله تعالى يوم القيامة، ومسؤولون أمام التاريخ لأنكم أنتم زعماء المسلمين ولم تفعلوا شيئاً لبناء مسجد لهم.

وقد قدمت لهم أربعة آلاف دولار أمريكية نقداً، وقلت لهم: إنهم يمكنهم أن ينفقوا منها في إيجاد مكان للصلاة، أو لأي شيء آخر يتعلق بالعمل الإسلامي الجماعي، فليست لفقراء المسلمين.

ثم قدمت للحاضرين صندوقاً من التمر هدية للجميع.

وكررت لهم القول بأن الرابطة تتعهد لكم بالعشرة آلاف التي ذكرتموها إذا حصلتم على أرض المسجد، تكون للخرائط والمخططات للمسجد، وإن بقي منها شيء يضم إلى ما تجمعونه من مال لبنائه.

وقد رأيت الإمام حسن بن نور الإسلام أو (حسن نور الإسلام أو غلو) لأن (أوغلو) في التركية تعني (ابن) مثلما أن (أوف) في آخر اسم الرجل تعني بالروسية (ابن)، رأيت الإمام يريد أن يقول شيئاً فسألته فقال: نعم أريد أن أقرأ شيئاً من القرآن حتى تسمعوا قراءتي.

ثم ابتدأ يقرأ سورة الفاتحة وبعدها قرأ سورة الإخلاص، وقراءته ليست جيدة، وما شبهته وهو يقرأ إلا بالأطفال الذين تعلموا قراءة قصار السور من القرآن حديثاً مع أن عمره ٧٧سنة كما أخبرنا.

ولا شك أنه مثلهم في كونه لم يسبق له تعلم القرآن، فقد سألته عما إذا كان قد درس شيئاً من القرآن، أو دخل مدرسة من المدارس، فأجاب بأنه لم يدخل أي مدرسة، ولم يتعلم القرآن تعلماً، وإنما كان يصلي ويستمع للقرآن في جامع لينين قراد (بطرس بورج حالياً).

وهنا تقدمت إحدى الأخوات المسلمات، وهي مسنة ذكرت أن سنها ٧٧سنة، ومنظرها يوحي بأنها أكبر من ذلك بعشر سنين، فقرأت آية الكرسي قراءة جيدة أجود من قراءة الإمام سواء في الفاتحة أو سورة الإخلاص، مع أنه ليس في فمها أي سن مما يؤثر على النطق بالحروف نطقاً طبيعياً. أما الإمام فسيأتي ذكر شيء من فقهه فيما بعد.

ثم دعونا إلى حفلة شاي كانوا أعدوها تكريماً لوفدنا، قدموا فيها الحلويات و(البسكويت)، وكانت الأخوات المسلمات، وكلهن من المسنات -كما قدمت- يخدمن المائدة، فيسكبن الشاي في الفناجين مرة بعد أخرى، ويقدمن الحلويات.

وقد حضر الحفلة معنا نحو اثني عشر شخصاً.

فقه الإمام:

ليس هذا العنوان استهزاء أو سخرية بأحد من إخواننا المسلمين في هذه البلاد، لأننا نقدر الأسباب التي أبعدتهم عن دينهم، وإن كنا لا نعذرهم، ولا نعذر أنفسنا في استمرار ذلك بعد أن انتفت الأسباب التي أدت إلى وجوده.

قلنا لهم: إننا نريد أن نصلي، فنرجو أن تبعدوا مقاعد الدراسة من الغرفة التي فيها الفصل الدراسي، ونحن نريد من ذلك أن نريهم كيف يصلون الجماعة، مع أننا نتيقن أنهم يتصورون ذلك من الناحية الشكلية.

أبعدوا المقاعد، وجاؤوا بقطعة من الشراع المشمع فبسطوها على الأرض، وصرنا صفين في الغرفة أحدهما عن يمين الإمام ويساره، والثاني خلفه، وبذلك اتسعت الغرفة لنا جميعاً.

طلب القوم مني أن أؤمهم في الصلاة، فامتنعت على عادة لي قديمة في أن أترك الفرصة للإمام الراتب أن يصلي، ففي هذا حفظ حقه، وفيه فائدة لي حيث أرى كيف يؤدي الصلاة.

صلى بنا الإمام (حسن نور الإسلام أوغلو) صلاة الظهر فجهر في الركعة الأولى بقراءة الفاتحة وسورة الإخلاص بعدها، ثم جهر في الركعة الثانية بقراءة الفاتحة وسورة الكوثر.

ومع غرابة ذلك فإن الأغرب منه أنه جهر بالتشهد كما جهر بالفاتحة، والأفظع من ذلك كله أنه سلم للظهر عندما صلى ركعتين فقط.

فبذلك صلى الظهر اليوم الأربعاء صلاة الجمعة إلا أنه زاد على ذلك بأن جهر بالتشهد كما جهر بالفاتحة.

وعندما انقضت الصلاة ألقيت فيهم كلمة قلت فيها: لا شك في أن أخانا الإمام لم يتعلم - كما قال - المسائل الفقهية الخاصة بالصلاة، لذلك

صلى الظهر ركعتين وهو مقيم، وذلك لا يجوز إلا للمسافر. كما أنه جهر بالقراءة فيها وكذلك بالتشهد، وذلك لا ينبغي أيضاً، فعلينا جميعاً أن نعيد الصلاة، ونصلي الظهر صلاة سرية، بمعنى أننا لا نجهر بشيء من القراءة أو التسبيح أو التشهد فيها، ونصليها أربعاً، وإلا نكون كمن لم يصلّ.

وقد أعادت هذه الواقعة إلى ذهني واقعة أخرى حدثت لي في مدينة (بيواستك) في بولندا عندما صلينا الظهر خلف إمام المسجد فيها، وهو مثل هذا الإمام لم يتعلم شيئاً من أمور الفقه، ولكنه يقرأ الفاتحة وقصار السور بخلاف بقية القوم، فصلى الظهر أربعاً يجهر فيها كلها، أي في كل الركعات الأربع. وكان قال لي: إن الظهر عشر ركعات، أربع قبلها، واثنتان بعدها، وهي أربع.

فأفهمته أنها أربع فقط، وأما ما قبلها وما بعدها فسنة إن فعلها المرء فحسن، وإلا لم تلزمه.

ولكن الأغرب من ذلك الإمام البولندي أنه يسألني في محضر من القوم عن عدد ركعات صلاة الجمعة، أهي اثنتان أم أربع ؟ فأسرعت أقول له: إنها اثنتان، فالتفت إلى قومه وقال: ألم اقل لكم إنها اثنتان ؟ !.

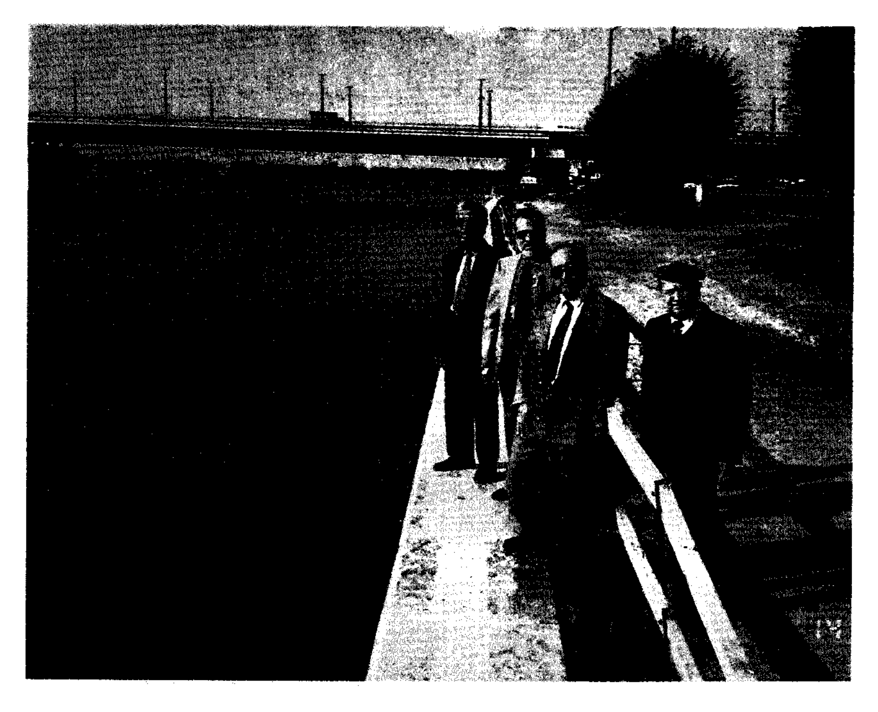
وقد ذكرت ذلك مع ما تعلق بأحوال المسلمين في كتاب: « مع المسلمين البولنديين »، وهو مطبوع.

وقد طيبت خاطر الإمام بأن شكرته على اجتهاده، وأعطيناه هدية جيدة، ورجوته ألا يصلي بهم حتى يعرف فقه الصلاة، وبإمكانه أن يجد من الطلبة المسلمين الذين يصلي معهم الجمعة من يخبره بأحكام الصلوات الخمس، وهم منه قريب.

على ضفة نهر دوغافا:

مدينة ريقا على ضفة نهر كما هي العادة في أكثر المدن القديمة المطيرة، أو التي على طريق نهر جار من منطقة مطيرة، ولذلك قال أحد القدماء، وبعضهم ينسبه للإمام الشافعي، وآخرون يقولون: إنّ الإمام أحمد قد قاله: " لا تسكن في مدينة ليس فيها طبيب ولا خباز ولا نهر جار ".

ولكن ريقا يجري فيها نهر دوغافا هذا الذي نحن ذاهبون إليه، وهي أيضاً على ضفة بحيرة عذبة كبيرة، وعلى شاطئ بحر البلطيق أيضاً.



على ضفة نهر دوغافا في ريقا مع الرفقة

سرنا بسيارتنا وهي حافلة صغيرة مع رئيس الجمعية التتارية الأخ (الدوس) وعدد من إخواننا أهل هذه المدينة من المسلمين إلى جانب المرافقين الذين كانوا معنا، وقد وسعتهم سيارتنا التي حملنا فيها أمتعتنا أيضاً لأننا خرجنا من الفندق قبل الظهر إذْ سوف نغادر (ريقا) بإذن الله عصر هذا اليوم.

ركبنا فوق جسر طويل عريض على النهر يسمونه (جسر النصر)،

فانحدرنا منه حيث أوقفنا سيارتنا قرب ضفة النهر، وسرنا إليه مشياً على الأقدام، وذلك أن السيارة لا تقف على شاطئ النهر مباشرة؛ بل جعلوا بجانب النهر ممراً للأقدام واسعاً.

يأتي نهر (دوغافا) هذا من جمهورية روسيا الاتحادية، ثم يمر بجمهورية روسيا البيضاء، ويسمى هناك (زابت دفينا)، ثم يصل إلى (لاتفيا) حيث اسمه دوغافا، وآخر من ينتفع به هم سكان مدينة ريقا، لأنه يصب في بحر البلطيق قريباً من المكان الذي نحن فيه، لا تزيد المسافة على ذلك أكثر من كيلوين اثنين.

ومع أن هذا النهر واسع وجميل المنظر فإن شاطئه مهمل حيث لا يوجد تجميل لا من نبات ولا غيره، فشاطئه الذي وقفنا فيه ليس فيه من النبات إلا أعشاب وحشية غير مهذبة. وزاد منظر الشاطئ سوءاً منظر أسراب من الغربان القبيحة المنظر، لا أدري سبب وجودها هنا. أما الشارع الذي بعد شارع الشاطئ فإنه جيد واسع فيه مواقف متسعة للسيارات.

كان الجو شامساً جميلاً كأنه من أيام الربيع في القصيم مثلاً مع أن الموسم الآن موسم أمطار بالنسبة إلى هذه المنطقة.

المدينة القديمة:

تقع مدينة (ريقا) على ضفة النهر اليمنى، ويسمونها (فست ريقا) بمعنى ريقا القديمة.

أول ما يلفت الانتباه أن جميع شوارعها مبلطة بالحجارة، وليس بالزفت، وربما كان أصل ذلك أنها بلطت قبل انتشار التبليط بالزفت.

وهي ذات شوارع ضيقة تتألف من بيوت منفردة قليلة بين أبنية كبيرة نوعاً ما قديمة أيضاً، ولكنها واسعة.

وجميع المباني فيها ليس فيها شرفات، بل كل نوافذها داخلة في الحيطان، وقد لاحظت مثل ذلك في هلسنكي عاصمة فنلندا، والظاهر أن مرجع ذلك إلى برودة الطقس، إذْ لا يمكن الجلوس في الشرفة (البلكونة) في أغلب أوقات السنة.

وفيها كنيسة ضخمة عالية البناء، ذات طراز مميز، وفيها كنائس أخرى، ولكن هذه أكبرها.



المؤلف مع الأخ الدوس سابتو في أحد شوارع ريقا القديمة

بداية تاريخ ريقا:

أول بدايات ريقا بنيت في عام ١٢٠١م، ولم تتوسع كثيراً في الماضي، ولكن الأبنية المهمة تركزت فيها بعد أن اتسعت المدينة، من ذلك قصر قديم طلاؤه سكري اللون، كان مقر رئيس الجمهورية، ومظهره مظهر البرج الأملس المحصن.

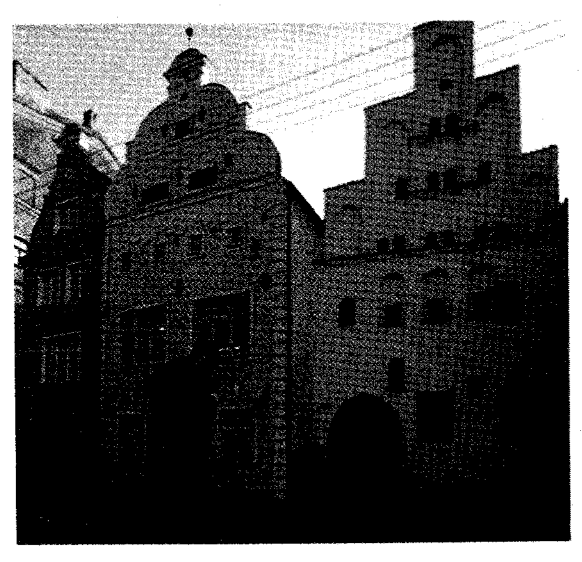
وفيه مبنى ضخم للمجلس النيابي (البرلمان)، ولا يزال موجوداً فيه، وهو مبنى كبير، ولكنه ليس فخماً، ومع ذلك رأيت على سطحه مسحة أندلسية، وهو من الطراز الذي يسمى (طراز عصر النهضة).

أمة بمفردها:

وكدت أجعل العنوان (أمة مستقلة) فخشيت أن يفهم منه أنها كانت مستقلة طوال تاريخها، وذلك خلاف الواقع، وأعني بها الأمة اللاتفية التي لها جمهورية لاتفيا هذه التي عاصمتها ريقا.

فيعتبر سكانها جنساً قائماً بذاته، له لغته الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره، ولا يتكلم بها غيره، وإن كانت لها قرابة باللغة الفنلندية وحدها دون لغة لتوانيا المجاورة على سبيل المثال.

ومذهب الأغلب من السكان هو المسيحية اللوثرية (البروتستانت)؛ حيث يدين بها ٦٠ ٪ من السكان، وأما الكاثوليكية فهي مذهب ٢٠ ٪، ومثلها الأرثوذكسية.



ريقا القديمة

وقد ابتليت هذه الأمة بالاحتلال حيث احتلتها السويد، وأطالت احتلالها، ثم احتلها الألمان، فالروس، ثم استقلت في عام ١٩١٩م حيث اعتبروا أن ذلك العام هو بداية استقلالهم الوطني.

ثم عاد الروس الشيوعيون إلى البلاد في عام ١٩٤٠م وظلوا كذلك حتى استقلت الاستقلال الأخير في عام ١٩٩١م.

ميدان دوم:

وقد ينطق بها (دوما) سمي على اسم كنيسة كبيرة قديمة تقع عليه اسمها كنيسة دوم، وقد حولت هذه الكنيسة فصارت لعزف الموسيقى الشعبية، إلا أنهم في العهد الأخير، وبعد انهزام الشيوعية صاروا يصلون فيها أيضاً.

وفي هذا الجزء القديم من المدينة تقع الإذاعة الوطنية.

ومما يسترعي الانتباه أنه وإن كان يغلب طابع القدم على البيوت التي فيه فإنها تبدو في أطرزة تختلف في بعض البيوت عن بعض، ولكنها على أية حال تستحق الإعجاب، وتستوقف النظر والفكر، فهي في الغالب تتألف من طابقين او ثلاثة ذات سقوف مسنمة، وأكثرها ذو طلاء فاقع.

وقد رأيت فتاتين أوروبيتين قد جلستا في وسط الشارع وهما ترسمان شارعاً ضيقاً تحيط به هذه البيوت القديمة، أما أنا فقد اكتفيت بالأمر السهل إذ التقطت لهما صورة، كما أخذنا صوراً تذكارية مع الإخوة المرافقين.

كنا نجول على أقدامنا من أجل أن نرى ما نراه أكثر حيث نقف ونسأل.

قصر القيصر:

واصلنا التجول في قلب المدينة، فوقفنا عند مبنى كبير نوهوا بأنه (قصر بترو الأول، ملك روسيا) وبترو هي بطرس، وهو قصر كبير إلا أنه ليس له مقدمات، فأبنيته تقع مباشرة على رصيف الشارع، وليس بالفخم في مقاييس القصور الفخمة في الوقت الحاضر، مع أنه قديم بني في القرن الخامس عشر، وطلاؤه أحمر كطلاء الأبنية في ساحة الكرملين الحمراء في روسيا.



مع الأخ حسن إزميرلي في أحد شوارع ريقا القديمة

ومن الغريب أنه لا يزال بيد الروس حتى الآن رغم استقلال البلاد بحجة أنه من الممتلكات الروسية كما قال لنا المرافقون.

ومررنا بمتحف نوهوا به وقال الأخ (الدوس): إنه طلب من المواطنين أن يتبرعوا بما لديهم من مقتنيات للمتحف، فسارع المسلمون فقدموا له المقتنيات المهمة التي كان يستعملها التتار في القديم، كما قدموا نماذج من ألبستهم

الشعبية.

ولم ندخل المتحف لضيق الوقت.

كنيسة دوم:

وهي التي سمي الميدان باسمها، وتقدم شيء من ذكرها، وهي الآن مصلى لهم ومتحف، فهي واسعة وشاهقة البناء، ويدخلها الناس للفرجة والاطلاع على داخلها.

وجدنا عند مدخلها مكتباً عليه فتاة جميلة رشيقة تبيع تذاكر للداخلين بثمن زهيد، وقد طلبنا منها أن تبيعنا أوراقاً أو كتاباً صغيراً مما يتعلق بهذا المكان، أو مدينة ريقا القديمة فاحمر وجهها خجلاً وقالت: لا يوجد لدينا شيء من ذلك، إلاّ باللغة الروسية.

والكنيسة تابعة للوثريين، ويجتمع فيها القسس الذين يعتنقون هذا المذهب الذي هو مذهب أكثرية السكان في البلاد. ومنظرها من الداخل أعجب من الخارج، وقد أكثروا فيها من التماثيل الدينية النصرانية حسب مذهبهم.

وأغرب ما فيها أن عمدها الداخلية ضخمة عريضة، وذلك من أجل أن تقوى على حمل السقف الضخم، وقد جعلوا في أثناء العمود منها درجاً لا يصعد منه لأنه مرتفع جداً عن قامة الرجل، وإنما هو رمزي، ونصبوا في ذلك الدرج تماثيل للمعظمين من رجال الدين منهم.

وفيها عدة شرفات عالية كأنها لكي يقف عليها الواعظ، وإن كانت كبيرة، وعلى كل شرفة منها أبراج رمزية عديدة.

أما قاعة الصلاة عندهم، فإنهم قد رصوا عليها المقاعد الخشبية الطويلة التي يجلس عليها المصلون في الكنائس في العادة.

ومن أكثر ما فيها جذباً للانتباه لوحة كبيرة مرسومة على الحائط

تمثل المسيح ﷺ، وقد رسموها حسب اعتقادهم في هذا الأمر.

ثم غادرنا (ريقا) القديمة، فمررنا بأحد الجسور الكثيرة فيها، وصادف أنْ كان أحد القطارات يمر من فوق الجسر، فأسرعت والتقطت له صورة لا أدري أتكون واضحة أم لا.

ومررنا بميدان واسع مستطيل ونحن نسير، فالتقطت له صورة من السيارة، ثم سلكنا شارع (سركانو) وهو واسع الأرصفة، وقد وقفت فيه طوائف كثيرة من الناس ينتظرون وصول الحافلات، وسبب كثرتهم أن هذه الساعة هي ساعة انصراف الموظفين من أعمالهم، وهي الآن قبيل الخامسة عصراً.

وأمعنت النظر جيداً في وجوه هؤلاء المجتمعين عند المحطات فإذا بهم الأوربيون الشقر، إلا أنهم أكثر جمالاً من الإنكليز مثلاً، وإن كان الجمال فيهم تنقصه التطرية والغذاء الجيد، كما أن ملابسهم نظيفة، ولكنها ليست غالية، أو لنقل إنها ليست من الملابس التي يراعى فيها الجمال أكثر من المنفعة.

والغريب أن الشعر الأسود فيهم قليل جداً، وإنما الغالب على شعورهم الشقرة التي يصل بعضها إلى حد البياض، فيخيل إليك أن بعض الشعر قد شاب، مع أن صاحبه في سن الشباب.

وقال لي أحد المرافقين: إن وجود الشعر الأسود على رأس رجل، أو في وجهه، يكاد يكون علامة عندهم على أنه غريب عن البلاد.

مغادرة ريقا:

غادرنا مدينة (ريقا)، واتَّضح لنا من الجولة فيها مع بعض ضواحيها أنها مدينة فخمة، ليس لكون عدد سكانها يناهز المليون ساكن فقط، وإنما

لكون أبنيتها وشوارعها واسعة جيدة.

ويحسن بنا قبل أن نغادر مدينة (ريقا) أن ننوه بما عرفناه منهم، وهو أن معنى (ريقا) (حزمة الحطب)، وذلك أن مكانها كان غابة يأخذ منها الناس الحطب.

هكذا قالوا مع أن البلاد كلها غابات يمكن أن يؤخذ منها الحطب.

وسكانها يناهز عددهم المليون من مجموع سكان جمهورية لاتفيا الذي يبلغ مليونين وسبعمائة ألف. (وريقا) أكبر مدينة في دول البلطيق الثلاث.

ريف ريقا:

وقعنا بسرعة بعد أن خرجنا من (ريقا) في ريف أخضر معتاد في هذه المنطقة البلطيقية، لا يخلو هذا الريف من قطع من الغابات التي بقيت من الغابات القديمة التي قطعوها من أجل أن يزرعوا الأرض زراعة حقلية.

وسلكنا الاتجاه الصحيح إلى مدينة (تالين) عاصمة جمهورية إستونيا على سيارتنا التي كنا استأجرناها من (فيلونس) عاصمة لتوانيا.

وتبعد (تالين) عن (ريقا) (٣٠٠) كيلو متر، فهي مساوية تماماً للمسافة ما بين فيلونس وريقا التي هي (٣٠٠) كيلو متر أيضاً.

ولم نمضِ بعيداً حتى جاوزنا جسراً رديئاً على نهر صغير حوله بيوت جديدة منفردة، لا شك في أنها من البيوت الخاصة، وهي على طراز محلي من الذي يكون أعلا البيت أضيق من أسفله، ولو كان مؤلفاً من طبقتين أو ثلاث فقط.

وبعد ثلثي ساعة من السير صار الطريق يماشي بحر البلطيق، فكنا نسير والبحر على يسارنا، ونحن متجهون جهة الشمال، والجو صاحٍ تماماً.

ولاحظت في هذا الطريق ما لاحظته في طرق مماثلة لبلدان شيوعية، وهو قلة المطاعم والمقاهي في الطريق، وبعضها لا يوجد فيه شيء من ذلك

أصلاً.

وقد استرعى انتباهنا ذلك لكوننا بحاجة إلى طعام، لأننا لم نتغدَّ في (ريقا).

مع أن العمارة في الريف التي تتمثل في البيوت الخشبية المتفرقة هي أكثر من لتوانيا، وأما العمارة بالزراعة، فإنها كلها ترى من الطريق مزروعة.

وكلها يرى المرء بين الفينة والأخرى فيها مساحات من الغابات الكثيفة التي تركت دون قطع، والطريق واحد للسيارات الذاهبة والآيبة يفصل بينهما خط أبيض.

غداء لاتفي:

سررنا حين رأينا لافتة عليها رسم شوكة وملعقة، علامة على قرب الوصول إلى مطعم على الطريق.



المؤلف قرب المطعم الريفي في الطريق بين ريقا وتالين

وقد وصلنا المطعم في السادسة والثلث بعد أن قطعنا من الطريق من ريقا إلى تالين ٦٥ كيلو متراً.

ويسمى (مطعم فيا)، تياسرنا إليه وهو داخل عن الطريق بنحو ١٠٠ متر، تفصل بينه وبين الطريق غابات ملتفة الأشجار، إلا أن الطريق الذي يذهب إليه واسع، لذلك يرى من الطريق العام إضافة إلى وجود لافتة خشبية عالية تبين وجوده.

وجدنا فيه أطعمة خفيفة جاهزة من الشطائر والسلطات وغيرها لمن أراد طعاماً خفيفاً جاهزاً، وعندها فتاة أوروبية تكاد تذوب خجلاً مع أنها جميلة، رشيقة القوام، ولكن هكذا عرفت من رأيت من نسائهم بالحياء من الأجانب وكبار السن، وقد يكون سبب ذلك أنني لم أختلط بأحد منهم.

طلبت من عاملة المطعم أن تحضر سمكاً من (السالمون) الجيد مع سلطة ممتازة وصفتها لنا، وشراب من عصير الفاكهة.

فكان أول ذلك الطعام الذي أحضروه في أوعية زجاجية كبيرة تشرب منه شيئاً فشيئاً، ثم جاءت السلطة، وهي مخلوطة جيدة، لذيذة الطعم، نظيفة المنظر، قد وضعوا عليها قليلاً من الخل، ثم الصحن الرئيسي وهو سمك السالمون معه بطاطس مقلي، وبعض الخضرات، إضافة إلى قليل من الخبز.

فكان غداء جيداً هنياً لأن المكان كله نظيف، وكل شيء فيه يتسم بالذوق الرفيع، والذي جرب المطاعم الشيوعية مثلما جربتها يعجب من وجود هذا المطعم في بلد كان محكوماً من الشيوعيين إلى ما قبل ثلاث سنين، مما لا يدع مجالاً للشك في أن الذين أنشؤوه هم من خارج البلاد من الذين جاؤوا إليها بعد انحسار الشيوعية.

والمطعم من الخشب، لكنه جديد، معتنىً به، وفي داخله غرف للاستراحة فيها حمام لا بأس بنظافته.

ودفعنا ثمن هذا الغداء النظيف ما يعادل ٣٠ دولاراً امريكياً، ونحن

خمسة، ثلاثة هم أعضاء وفد الرابطة، واثنان كانا في صحبتنا من لتوانيا، وهما الأخ (أدس)، وسائق الحافلة الصغيرة، وهو غير مسلم؛ إلا أنه مؤدب وصبور، فهو يكثر من التدخين، ولكنه لا يدخن عندما نكون معه في السيارة، كما أنه صموت مطيع.

وقد خيرونا في دفع المبلغ بعملتهم (اللتس) الذي يساوي دولارين أمريكيين، أو بالدولار الأمريكي بهذا السعر.

وقد غادرنا المطعم بُعيد السابعة، واستأنفنا السير جهة الشمال، وما تزال الشمس صاحية، وصار الطريق يماشي بحر البلطيق يدعه على يساره كما قدمت، فكان الطريق يسير ملاصقاً له أحياناً، وأحياناً يبتعد عنه قليلاً.

نهر سلاتس كريفا:

مر الطريق فوق نهر كبير اسمه (سلاتس كريفا) عنده قرية صغيرة حديثة النشأة.

والنهر ذاهب إلى بحر البلطيق يصب فيه، وهو منه قريب الآن.

إستونيا



إستونيا: ESTONIA

تقع جمهورية إستونيا على بحر البلطيق في الطرف الشمالي السشرقي لسهل أوروبا الشرقية، وتتبعها جزيرتا ساريما وفيوما، وتبلغ مساحتها ٤٥١٠٠ كم٢، وتغطي أراضيها سهول منبسطة تكثر فيها المستنقعات والبحيرات والأنهار، وأهم الأنهار نارفا Narva ، ويارنو pyarnu ، كما تغطي الغابات قسماً كبيراً منها.

وبلغ عدد سكانها ١,٦٠٧,٠٠٠ نسمة عام ١٩٩٢م، ويتكون سكان إستونيا من العناصر التالية:

الإستون: ٦١,٥ ٪.

الروس: ٣٠,٣ ٪.

الأوكرانيون: ٣,١ ٪.

الروس البيض: ١,٨ ٪.

الفند: ١,١ ٪.

والديانة السائدة هي البروتستانتية والأورثوذكسية. وأهم المدن هي تالين Tallinn ، وهي العاصمة سكانها ٥٢٥٠٠٠ نسمة، وتارتو Tartu ١٢٠٠٠٠ نسمة، ونارفا Narva ٨٥٠٠٠ نسمة.

ويعتمد اقتصاد إستونيا على الزراعة، وأهم محاصيلها: القمح، والبطاطس، والرعي إذ يقدر عدد المواشي فيها بنحو ٨٢٠,٠٠٠ رأس من البقر، و١٣٦,٠٠٠ رأس غنم. وأما الصناعات فيها فهي: الورق، والزيوت، والأقمشة.

الإستون هم من شعوب الفند الذين يقطن بعضهم فنلندا في الوقت الحاضر، وقد اغتصبها الروس من السويد في القرن الثامن عشر الميلادي،

واحتلها الألمان عام ١٩١٧م، ثم استقلت عام ١٩١٩م، ولكن الروس ضموها إلى الاتحاد السوفييتي في ٥/ ٨/ ١٩٤٠م. وعلى أثر انهيار الاتحاد السوفييتي أعلنت إستونيا استقلالها في ٢٠ أغسطس ١٩٩١م.

العملة النقدية فيها: كرون Kroon، ويعادل الدولار: ١٢,٥ كروناً إستونياً.

المسلمون في إستونيا:

معظم المعلومات الصحيحة عن المسلمين في إستونيا استقيناها ميدانياً خلال زيارتنا لهذه البلاد، وهي مذكورة في تضاعيف يوميات الرحلة، ولذا لن نذكرها هنا لئلا نكون عمدنا إلى التكرار، لكن من الملاحظ التماثل العجيب بين أوضاع المسلمين في البلدان البلطيقية الثلاثة: لتوانيا، ولاتفيا، وإستونيا؛ مع أن كل واحدة منها هي أمة برأسها، أي هي وحدها ذات عنصر معين، ولغة وطنية خاصة بها، وشعور بالتميز عجيب، إلا أن ذلك لم يمنع من تماثل عجيب أيضاً في كثير من شؤون هذه البلدان الثلاثة.

فمثلاً مساحة لتوانيا ٦٥٢٠٠ كيلو متراً مربعاً، ومساحة لاتفيا ٦٣٧٠٠ كيلو متراً مربعاً، والمسافة من فيلونس عاصمة لتوانيا إلى ريقا عاصمة لاتفيا هي ٣٠٠ كيلو متر، ومن ريقا إلى تالين عاصمة إستونيا هي ٣٠٠ كيلو متر أيضاً.

وهذا على سبيل المثال، وليس هدفنا أن نعدد كل أوجه التماثل إلا فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين. فقد وجدنا أن حال المسلمين في هذه البلاد الإستونية شبيهة بحال إخوانهم في البلدين الآخرين.

فهم يتخذون من الإسلام هوية يتميزون بها عن سائر السكان من النصارى، ولا تكاد توجد لديهم مقومات أخرى من مقومات الثقافة الإسلامية؛ بل حتى المعرفة الإسلامية القليلة غير موجودة عندهم، وأيضاً ليس في العاصمة مسجد، ولا جمعة، ولا جماعة.

ومعظم المسلمين هم من التتار، مثلها في ذلك مثل لتوانيا ولاتفيا. والتتار هؤلاء الموجودون في البلدان الثلاثة، هم من قدماء السكان في هذه البلاد، أي من عهد إمبراطورية (التون أردو) بمعنى القبيلة الذهبية التي أسس أولها الملك المسلم العظيم بركة خان بن جوجي خان، بن جنكيز خان أول ملك مغولي يدخل في الإسلام، وقد حسن إسلامه، بل صار يجاهد الكفار، وعلى رأسهم ابن عمه الطاغية هولاكو الذي هزمه، وصار هلاكه - أي هولاكو - بسبب هزيمة بركة خان إياه في وقعة هائلة.

وقد استمرت تلك الدولة المسلمة التي أسسها (بركة خان)، ويصح أن نسميها بدولة الشمال المسلمة، ردحاً من الزمن، بسطت نفوذها على شمال الأرض من هذه الجهة التي هي جهة اتصال أوروبا وآسيا من جبال القبق (القوقاز) حتى مشارف سيبريا وجبال الأورال.

وعند زوالها صار الروس يسمون المسلمين الذين كانوا من رعاياها بالتتار تشنيعاً عليهم، أو من باب الجهل بحقيقة حالهم، مع أنهم ليسوا من التتار لحماً أو دماً، وإنما هم من رعاياهم المسلمين.

وبعض التتار الموجودين في أقطار البلطيق الثلاثة جاؤوا إليها من الاتحاد السوفييتي السابق مثلما جاء إليها أقوام من المسلمين من أنحاء أخرى منه.

ولذلك كانت أعداد المسلمين في إستونيا حسبما أخبرنا إخواننا تصل إلى نحو أحد عشر ألفاً، منهم ستة آلاف من التتار، وخمسة آلاف من قوميات مختلفة، فيهم ١٢٠٠ من أذربيجان، والبقية من الأوزبك والقازاق والتاجيك والقيرغيز.

ولا يوجد مسلم واحد من أهل البلاد الأصلاء الذين هم الإستونيون، وذلك لضعف المسلمين ثقافياً؛ بل لانعدام الثقافة الإسلامية لديهم نتيجة للسياسة الإلحادية الشيوعية، و(فاقد الشيء لا يعطيه) كما يقال. وبعض

المسلمين حصلوا على الجنسية الإستونية، والمراد بهم من كانوا من أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق.

ويعمل المسلمون عمالاً في المصانع، ومن الموظفين في الشركات إلى جانب عدد من التجار.

وأخبرونا أننا أول وفد إسلامي يتلقون منه مساعدة من خارج بلادهم.

على حدود إستونيا :

وصلنا الحدود التي تفصل بين جمهوريتي لاتفيا وجمهورية إستونيا البلطيقيتين في السابعة والنصف، فكان أول ذلك أن دخلنا مع بوابة رديئة هي بوابة الخروج من لاتفيا، عليها ثلاثة ضباط أخذ واحد منهم جوازاتنا من السائق، ونحن في السيارة لم ننزل، ولم يقارن بين صورنا في الجوازات وبيننا.

ولم أر عندهم أي شخص آخر غيرنا في هذه الحدود.

وسرنا بالسيارة مسافة قصيرة هي التي تفصل بين مركزي الحدود للدولتين، وعندما وصلنا إلى مركز الدخول إلى إستونيا نزل السائق بالجوازات كالعادة، وأعطاها ضابطاً كان قرب السيارة، فنظر فيها ثم اجتمع معه عدد من الضباط والموظفين ينظرون إليها، ثم قالوا للسائق: قل لهم كل واحد منكم يأخذ جوازه بيده، وينزل إلى مكتب الجوازات.



مركز الحدود بين لاتفيا وإستونيا

دخلنا المكتب المؤلف من غرفتين رديئتين، أظنهما من الخشب المصبوغ، أو من مادة تصنع منها الأبنية الجاهزة، فوجدنا على مكتب الجوازات ضابطة، رأت الجوازات وختمتها دون تأخير، وأعطتنا إياها مشيرة إلى باب الخروج الذي تبين أنه انتهى عنده كل شيء من الجوازات.

ومركز الحدود الإستونية ليس فيه بوابة، ولا مظلات، ولا أية أبنية ما عدا غرف الجوازات التي أظنها اثنتين يدخل من واحدة منهما إلى الأخرى.

ومن الغريب أنه لم يوجه إلينا أي سؤال جمركي في هذه الحدود كلها، وأظن أن مرجع ذلك أنهم اعتبروا هذه الجمهوريات الثلاثة منطقة جمركية واحدة كما كان الاتحاد السوفييتي قبل انفراطه منطقة جمركية واحدة.

إضافة إلى كون جوازي وجواز رفيقي في الرحلة الأستاذ حسن بن علي إزميرلي (دبلوماسيين)، وقد التقطت صوراً لمناطق الحدود كلها دون أن يعترض أحد، ولا أدري أذلك لكونهم لم يروني، أم أنه لا بأس بذلك عندهم؟.

وقد استغرق الخروج من لاتفيا والدخول إلى إستونيا ١٧ دقيقة، إذْ نظرت في ساعتي ونحن نبدأ السير داخل إستونيا فوجدتها الثامنة إلا ١٣ دقيقة، ولم تغرب الشمس بعد. وقد غربت بعد قليل، ولكن النور لا يزال غامراً بعد غروبها، بسبب الموقع الشمالي لهذه البلاد - كما قدمت -، وقد لاحظت شيئاً آخر في هذه المنطقة، وهي أن القمر في جهة الغرب كان قرناه، وهما ركنا الهلال، متجهين جهة الجنوب، والجزء المنور فيه جهة الشمال، خلاف ما يكون عليه الأمر عندنا؛ حيث يكون النور من الهلال وفيما بعده من الليالي هو الأسفل وقرناه في الأعلى.

وذلك ناتج عن كون الشمس تكون موجودة في الغرب الشمالي من الهلال في فصل الصيف في البلدان الشمالية، لأن رقة طرف الأرض، أو لنقل: إن الدقيق من الكرة يكون بطبيعة الحال هو ما قرب من القطبين، وكلما

ذهب المرء جنوباً غلظ جرم الأرض حتى يبلغ أشده في هذا الأمر على خط الاستواء.

وقد التقطت صورة للطريق بعد غروب الشمس بفترة.

هذا وقد ران الظلام فأصبحنا لا نبصر شيئاً، فأحسسنا أن الطريق قد طال، لا سيما أن الأنوار قليلة جداً في هذا الريف، ثم وقفنا وقفتين لمهاتفة الأخ (خراسوف) مفتي إستونيا في منزله بتالين، وكان الإخوة أهل ريقا قد أخبرونا أنهم سيهتفون به من أجل أن يحجز لنا غرفاً في فندق مناسب، ولكننا لم نجده في بيته، فكلمتنا زوجته وذكرت أنه ذاهب إلى المستشفى.

مدينة تالين:



الزهور في باب الفندق في تالين

دخلنا ضواحي مدينة تالين، وهي ضواحٍ غير جيدة، ولا ساطعة الأنوار،

إلا أنها متسعة الشوارع، تكثر بينها المساحات الخضر، وقصدنا قلب المدينة الجيد من أجل البحث فيه عن فندق مناسب.

وكانت صدفة مباركة حينما وصلنا (فندق أولمبيا) فوجدنا فيه الغرف التي نريد، وهي أربع، ثلاث لنا، وواحدة لمرافقينا من لتوانيا.

ويقع وسط المدينة الجيد، وهو فندق جيد، أظنه في مستوى ذوات النجوم الخمس، وأجرته مناسبة إذْ هي ٨٢ دولاراً للغرفة للشخص الواحد.

وفيه عدة مصاعد حديثة واسعة.

وغرفه جيدة، في كل غرفة سريران، وفيها تلفاز ملون يلتقط من الأقمار الصناعية إذْ فيه عدة قنوات إلى جانب قناتين تبثان من إستونيا.

ومن أهم ما فيها أن الحمام واسع مريح، وفيه الماء الحار الذي كنا بحاجة إليه للاستحمام بعد السفر.

يوم الخميس ١٠/ ٤/ ١٤١٥هـ. ١٥/ ٩ / ١٩٩٤م.

تقع غرفتي في الطابق السادس من الفندق، وتطل على ميدان مهم من العاصمة تالين ويتألف الميدان من حديقة عالية الأشجار، ومسارات للسيارات، وعندما أزحت ستارة النافذة عنها في هذا الصباح رأيت أعداداً كثيرة من السيارات في هذا الميدان، كلها قد أضاءت مصابيحها مع أن الجو صاحٍ منير، والساعة تقارب الثامنة، فذكرني ذلك بما عرفته في إستوكهلم من كون القانون عندهم يلزم أصحاب السيارات بأن يضيئوا مصابيحها في النهار مثلما يضيئونها في الليل.

وأساس ذلك كله أن هذه المنطقة منطقة ضباب أو ثلوج في أكثر الأوقات لذلك تكون إضاءة المصابيح في السيارة أضمن لمعرفة السيارات المقابلة مما إذا كانت مطفأة حتى في النهار.

وقد رأيت الأشجار عالية علوّاً كبيراً في حديقة الميدان حتى إنها حجبت ما وراءها في نظري رغم علو غرفتي.

هذا وقد نزلنا إلى مطعم الفندق، فوجدناه واسعاً نظيفاً كل شيء فيه مما يؤكل في الصباح متوفر على طريقة المائدة المفتوحة، ومع ذلك كانت أعداد العاملات في المطعم كثيرة، وكلهن يتمتعن بجمال المظهر، وحسن المعاملة مع الضيوف في المطعم.

ولاحظت كثرة السياح في هذا المطعم، لأن البلاد الآن مفتوحة بعد أن كانت مغلقة في زمن الحكم الروسي الشيوعي.

إلى سفارة روسيا البيضاء:

واسمها الرسمي هنا وفي تلك البلاد نفسها (بلا روس)، فبلا: بيضاء، وروس: العنصر الروسي، وقد تظرف بعضهم بأن قال: (روس بلا روس)،



والأخيرة هي رؤوس سهلت همزتها.

كنا حصلنا على سمة دخول سياسية إلى روسيا الاتحادية من سفارتها في بلادنا، وحسب ما كنا نعرفه أنها كافية لدخول بعض الدول المستقلة، إلا أننا علمنا أخيراً أن الأمر قد اختلف الآن؛ بحيث أصبحت الدول التي استقلت عن الاتحاد السوفييتي السابق تطلب الحصول من سفاراتها أو ممثليها في الخارج سمة دخول إليها، فظننا الأمر كذلك بالنسبة إلى روسيا البيضاء التي سنزورها بعد إستونيا بإذن الله، ومنها ننطلق إلى موسكو.

في الساعة التاسعة مر بنا الأخ (علي خراسوف) مفتي إستونيا، وهو رئيس الجمعية الإسلامية فيها، وإلاَّ فإنه لا مكان لمنصب مفتٍ فيها لكون المسلمين الآن ضعفاء في دينهم، لا يعرف أكثرهم الأمور المعروفة بالضرورة من الدين، ولا يعملون بها، ولكون الأخ (علي خراسوف) نفسه لم يتعلم تعليماً إسلامياً، وإنما هو طيار مدني عمل في هذه المهنة عشرين سنة ثم تقاعد، ولكنه رجل متدين، فقام بهذا العمل جزاه الله خيراً.

ومن الغريب في اسمه (خراسوف) أنني كنت أظنه (قراشوف) لأن كلمة (قرا) بالتركية وما تفرع منها من لغات تعني: أسود، مثل (قراقوش).

لذلك سمعني أقول: (قراسوف) فانبرى يصحح لي اللفظ بأنه (خراسوف)، وأخذ يكرر لفظه بالخاء بعدها راء فألف، وهي التي ظننتها (قرا)، ولو كان يعرف معناها بالعربية لما كررها.

ولا شك في أنه يظن أننا نعرف معنى كلمة (خراشو) بالروسية التي يعرفها جيداً، وأنه (طيب) أو جيد.

والأخ (علي خراسوف) صار نافعاً لنا في هذه الجمهورية لأنه صحبنا فيها حتى فارقناها، وهو ليس كالأخ (أدس) الذي لا يعرف أية لغة نعرفها، فهو يعرف التتارية لأنه من التتار، ويتكلمها زميلنا في وفد الرابطة الأخ رحمة الله بن عناية الله، كما أن ثقافته عالية، فهو طيار سابق كما قدمت، ويعمل

الآن في إحدى الشركات.

ذهبنا مع الأخ (خراسوف) بسيارته التي يقودها بنفسه مع شوارع القلب التجاري للمدينة الذي يقع فيه فندقنا، وكلمة (القلب التجاري) هذه تقال قياساً على مثيله في البلدان الحرة، لأن فيه المحلات الكبيرة، وإلا فإنه ليس فيه بيع وشراء في زمن الحكم الشيوعي. لأن الحكومة تبيع في مثل هذا القلب التجاري على الناس ولا تشتري منهم، والناس لا يبيعون فيه، وإنما يشترون من المحلات الحكومية.

أما الآن فقد تغير الوضع القانوني في البلاد بعد خلاصها من الشيوعية، ولكن لا تزال العقلية الشيوعية، وعدم الخبرة في الشؤون الاقتصادية الحرة تقف حائلاً في سبيل الاقتصاد الحر، وإن كان القانون لا يمنعه في أكثر الأشياء.

وشوارع (تالين) واسعة في مجملها، وقد مررنا بها مسرعين ونحن ذاهبون إلى سفارة روسيا البيضاء، وفيها خطوط (الترام)، فخرجنا من قلب المدينة وظننا أننا خرجنا منها كلها إذْ صرنا نسير في فراغ من البناء حتى وصلنا إلى الأبنية المتعددة الطوابق المعهودة في المدن الشيوعية، وقد بنيت منفصلة عن المدينة، ثم وصلت بها عن طريق الشوارع الخارجة من المدينة.

وهذه الأبنية الحكومية (العمارات) هي كئيبة المنظر رغم طلائها بطلاء صارخ، لأن العوامل الجوية أثرت فيه، وعدم العناية بها ظاهر من واقع كونها حكومية لا يكون السكان مسؤولين عن تحسين مظهرها، أو عما يحتاج إلى تعمير من مرافقها.

دخل الرفاق إلى مبنى السفارة في شقق من إحدى (العمائر)، فأخبرهم الموظفون أنهم سيمنحوننا السمة مقابل مائة دولار للجوازات الثلاثة على أن نتسلم الجواز في الرابعة بعد الظهر.



أبنية شيوعية سكنية في تالين

ولقد عجبت من كونهم يأخذون نقوداً على منح السمة لجواز سفر (دبلوماسي)، وتبين لنا بعد ذلك أن الموظفين أخذوا النقود لأنفسهم لكونهم لم يضعوا طوابع على الجوازات، ولم يعطوا (إيصالاً) مقابلها.

ولاحظت بينما كان الإخوة في السفارة وكنت أتمشى في المنطقة أن كثرة من الناس كانوا في انتظار الحافلة التي تنقلهم إلى داخل البلد هم في ملابس رثة، وإن تكن نظيفة، والمظاهر في وجوههم تدل على نقص التغذية رغم كونهم من البيض الشقر.

وقد علق أحد الإخوة من أهل إستونيا على ذكر روسيا البيضاء بقوله: الروس والروس البيض والأوكرانيون كلهم من جنس واحد، لكن الروس البيض أحسنهم أخلاقاً.

وكلامه هذا صحيح في كون الجميع من جنس واحد، لأنهم كلهم من

السلاف مثل البولنديين؛ بخلاف أهل البلاد البلطيقية، ومنهم الإستونيون الذين نحن الآن في بلادهم فإنهم جنس آخر لا ينتمي إلى العنصر السلافي مثلهم في ذلك مثل جيرانهم الأقربين من الفنلنديين، فهم وإن لم يكونوا منهم إلا أنهم جنس آخر فيه نسبة من الجنس الآسيوي الذي قدم إلى المنطقة قبل حوالي ١٥ قرناً واستقر فيها.

العودة إلى المدينة:

والمراد بها وسط المدينة، أو لنقل إنها المدينة القديمة، فلاحظت كثرة السيارات فيها، وأغلبها من السيارات الروسية التي أكثرها (لادا)، وأقلها (فولغا) التي هي أكبر من لادا وأغلى منها.

وعندهم مثل البلدين اللذين قبلهما في البلطيق وفرة في المواصلات العامة الكبيرة مثل الترام والحافلات الكبيرة، ولذلك لا يشكون من قلة وسائل المواصلات العامة، وهي رخيصة الأجرة، والازدحام فيها محتمل إلا في أوقات الانصراف من العمل، ووقت الذهاب إليه.

والشوارع في خارج القلب التجاري من المدينة مهملة الأرصفة، وفي ضواحيها مهملة الساحات، فقد لاحظت أن هناك فراغات واسعة بين أحياء الضواحي قد نمت فيها الأعشاب الوحشية وتركت غفلاً من دون تهذيب أو عناية.

ولاحظت أنها مثل لتوانيا: جمال في طبيعة الأرض، وفي وجوه الناس، ولكن تعلوه كآبة على الجميع.

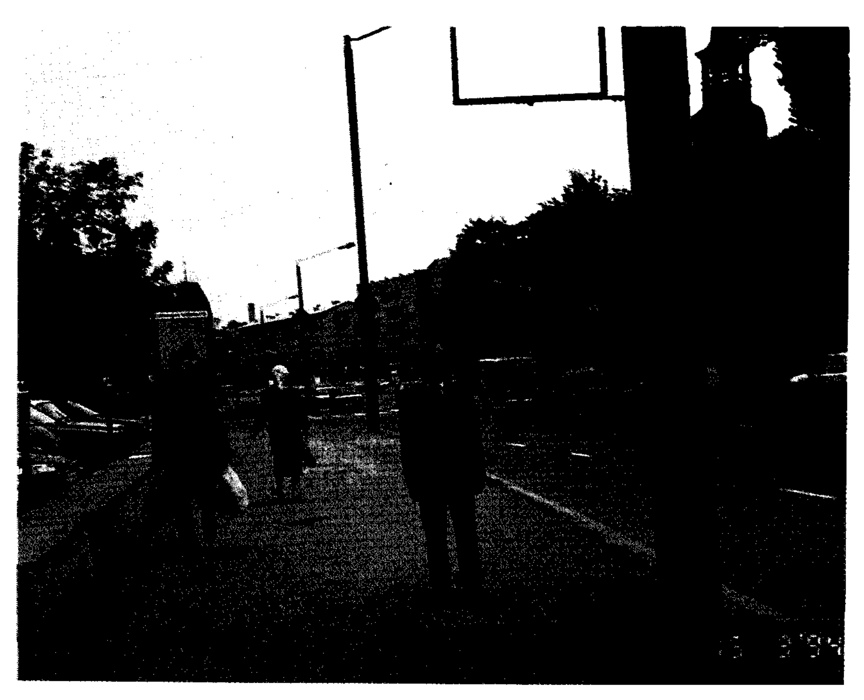
بيوت الحكومة الخربة:

تكثر البيوت الخربة المهملة هنا في الأقسام الخارجة عن قلب المدينة القديم مثلما أنها تكثر في قلب المدينة القديم، وما كان بينها وبين حواشيها

في (فيلونس) عاصمة لتوانيا.

- وهنا سألت الأخ علي خراسوف عن السبب في بقاء هذه البيوت الخربة مع أنها في أحياء مسكونة. فقال: هذه البيوت للحكومة، والحكومة لا تعمرها لأنها عاجزة عن ذلك.

أما الشوارع الواسعة الجيدة في الأقسام الجيدة من المدينة فإنها مثل مثيلاتها من الدول الشيوعية تتلاقى فيها السيارات المتضادة الاتجاه، ويفصل بين الذاهب والآيب خط أبيض.



المؤلف في أحد شوارع تالين

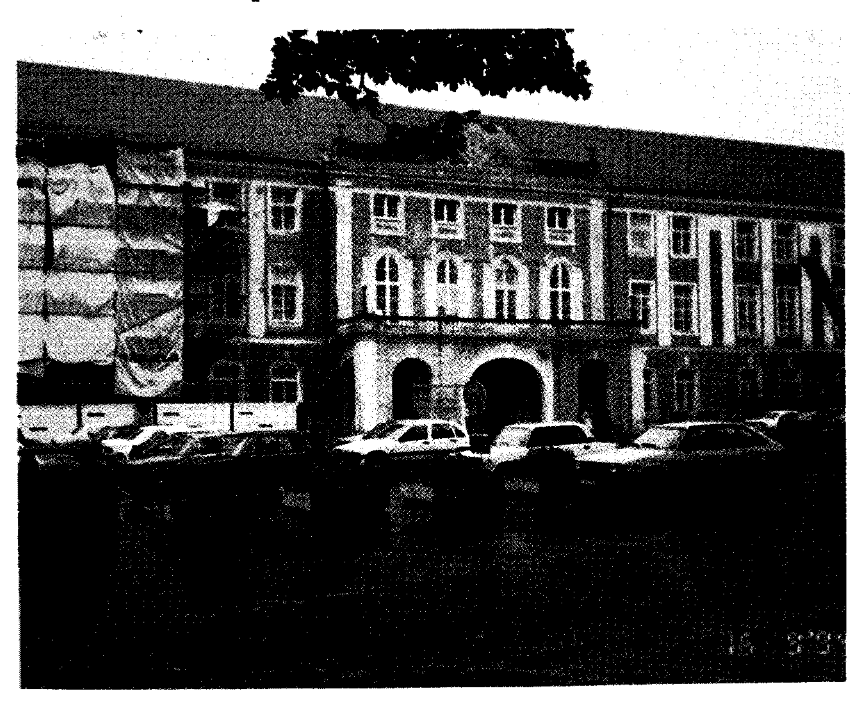
وأما الشوارع خارج قلب المدينة فإن بعضها يكون من اتجاهين بينهما جزيرة ضيقة نمت فيها أعشاب طبيعية.

وأما الزهور وغيرها مما يكسب الشوارع والأحياء الجمال والمتعة فإنه لا يوجد.

شارع لوثري:

مررنا عند العودة إلى الفندق في قلب المدينة التجاري بشارع جيد اسمه (شارع لوثري)، وقد ظننت لأول وهلة أنه سمي بذلك لكون أكثرية السكان يعتنقون المذهب اللوثري، لأن الدين الرسمي للدولة هو (اللوثرية)، ولكن تبين أنه سمي بذلك على اسم رجل اسمه (لوثر)، وهو أحد الكتاب المسرحيين الوطنيين.

وهذا الشارع تقع عليه أبنية كبيرة قديمة أكثرها بني قبل الشيوعية.



مبنى البرلمان في تالين

ثم خرجنا من الفندق فسرنا قليلاً مع الشارع الذي يقع عليه واسمه (ليفاليا)، ثم تركناه إلى داخل قلب المدينة التجاري هذا حيث شوارعه جيدة ذات أرصفة لا بأس بها، ترفرف عليها أغصان الأشجار الخضر، ولم أستغرب وجود الأشجار بهذه الكثرة عندما رأيت الطحلب الأخضر على جذوع

الأشجار مرتفعاً إلى أعلى جذوعها، وذلك لكثرة الأمطار والأنداء التي تصيبها.

ثم اخترقنا شارعاً واسعاً، فميداناً خالياً من أي تجميل أو تزيين، ونحن ذاهبون إلى بيت الأخ علي خراسوف لتناول الغداء فيه. وخيّل إليّ أننا خرجنا من المدينة لأننا سرنا في فضاء خالٍ من المنازل إلا أنه تبين أننا لا نزال في المدينة إذْ وصلنا بالفعل إلى حي شوارعه واسعة إلا أنها غير معتنى بها، فليس فيها من مظاهر العناية إلا خط إسفلتي ضيق يكون في وسط الشارع تسير عليه السيارات، وباقي الشارع مهمل قد نمت فوقه الأعشاب الطبيعية حتى وقفنا عند بناء معتاد من الأبنية التي بنتها الحكومة شققاً صغيرة تؤجرها للمواطنين، والمبنى مؤلف من خمسة طوابق، ولذلك لا يوجد فيه مصعد، لأن النظام المتبع في الأبنية الروسية قد سار على أن المبنى إذا زادت طبقاته عن خمس فإنه يكون فيه مصعد، وما كان خمس طبقات فأقل لا يكون فيه مصعد.

كان منزل الأخ (علي خراسوف) في الطابق الخامس، وهو الأعلى من المبنى، فصعدنا معه الدرج، ورثينا له ولأمثاله ممن يسكنون في هذا الطابق، ويضطرون للتردد إليه، ووجدنا البيت شقة ضيقة إلا قاعة الجلوس فإنها لا بأس بسعتها إذ أقدر أنها أربعة أمتار في خمسة.

حالما اطمأن بنا المجلس أسرع الأخ علي صاحب البيت إلى مائدة من الخشب كانت مطوية وموضوعة على الجدار، فأحضر قوائم لها من قضبان الحديد منفصلة ثم نشرها لأنها ذات ثلاثة مفاصل، ثم أخذ يضع عليها مقدمات المائدة التي هي السلطة المؤلفة من الخيار والطماطم، وهي ذات قيمة عندهم في فصل البرد لأنها تنقطع من البلاد آنذاك، أما الآن فإنها موجودة ومتوافرة.

واحتاج أحدنا الحمام فوجده في نهاية الضيق، وخالياً من الحوض الذي تغسل فيه الأيدي، وإنما تصب الحنفية فيه في حوض الاستحمام الذي عرضوا

فوقه ما يشبه الأعواد من الحديد أو المعدن، ووضعوا فوقه بعض الأشياء التي ضاقت بها الشقة.

ومع هذا الضيق في الشقة فإننا وجدنا فيها قطة سوداء لأن أهل هذه البلاد الشمالية، ومنهم الروس، يحبون القطط في بيوتهم بديلة الكلاب أو معها.

وأجرة الشقة أربعون دولاراً في الشهر، وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى دخول الأفراد المتدنية هنا، وذكر الأخ علي أن المبنى ملك للحكومة، وأنه يدفع المبلغ للحكومة.

ثم أحضر الغداء وهو أرز مقلو بزيت أو سمن ودجاج وجبن وخبز وعسل، بعد ذلك أحضر الكعك اللين (الكيك) والبرتقال ثم الشاي.

وعند الانتهاء من الطعام كان وقت الظهر قد أزف، فأذن الأخ علي في بيته، وقبل ذلك لبس القلنسوة (الطاقية)، وبعد الأذان جلس القرفصاء لفترة قصيرة يدعو سراً، ثم قال: السنة، وقام فصلاها منفرداً ركعتين ركعتين، وأم بنا لصلاة الظهر، وصلاته صحيحة كلها مما يدل على أن لديه قدراً من العلم بكيفية الصلاة، وليس كإمام ريقا الأخ حسن نور الإسلام أوغلو.

وقد صلينا نحن المسافرين بعدها صلاة العصر جمعاً مع الظهر.

ولاحظت في غرفة الجلوس خزانة مليئة بالكتب الإسلامية، أو التي تتحدث عن الإسلام، وأكثرها بالروسية التي يحسنها هنا سائر المتعلمين، وفيها كتب بالتركية التي يعرفها أيضاً، ومن ذلك ثلاثة معاجم كل واحد منها (عربي روسي) على مستويات وطرق مختلفة، وكلها طبعت في موسكو بالحروف الروسية والعربية.

جولة في تالين:

غادرنا بيت الأخ (علي خراسوف) في الثالثة إلا الربع، وغادرنا الحي الذي يقع فيه البيت واسمه: (موستي مي) بمعنى الجبل الأسود، فوصلنا إلى ضاحية من ضواحيها غارقة في الجنات إلا أنني لاحظت أن المياه تجري إلى مجرى على جانب الطريق، ولا أدري أهي مستعملة أم أنه مجرى لتصريف الأمطار الكثيرة.

واسم هذه الضاحية (ستلي قولا) بمعنى الحي المزهر، مع أنني لم أشاهد فيه أزاهير، وإنما شاهدت الخضرة الداكنة في الأشجار الباسقة، وفي الأعشاب الطبيعية التي تجلل الأراضي الخالية فيه حتى حواشي الطرق هي خضراء. وعلى ذكر الأمطار أقول إن الجو قد تلبد فجأة بالغيوم.

ثم سلكنا شارعاً جيداً اسمه (إندلا)، وفي نهايته ميدان فيه قسم محجوز لوقوف السيارات بأجرة، وعند مدخله امرأة تقبض الأجرة من الواقفين فيه، وهي جالسة على مكتب في محراب (كشك).

تالين القديمة:

وقفنا في هذا الميدان الذي يسمونه (ميدان الحرية)، وبلغتهم: (قابا دوسا فليق).

كان الغرض من وقوفنا في هذا المكان هو الاطلاع على مدينة تالين القديمة التي يقع هذا الميدان على حدودها.

فكان أول ما شاهدناه منها برجاً ضخماً عالياً، نوه الأخ (علي خراسوف) بأن هذا البرج هو من بناء المستعمرين أو الأجانب الذين حكموا إستونيا، وإنه قديم يرقى تاريخ بنائه إلى ٧٠٠ سنة.

ثم ذكر أن (الإستونيين) لم ينعموا بالحرية والاستقلال إلا لمدة قصيرة في عام ١٩٢٢ حتى ١٩٤٠م، مثل القطرين الآخرين (لتوانيا) و(لاتفيا).



أبراج أثرية في تالين القديمة

صعدنا مع درج إلى تلة غير بالغة العلو هي التي بنيت عليها مدينة (تالين) القديمة، فكان أعظم ما فيها ظهوراً كنيسة روسية ضخمة، فوقها صليب، وقد عجبنا من كون الصليب تحته هلال، وقال أحد المرافقين: إن هذه عادة لبعض الكنائس الروسية بعد أن احتل الروس قازان عاصمة جمهورية تتارستان صاروا يضعون الهلال تحت الصليب إشارة إلى أنهم تغلبوا على المسلمين الذين شعارهم الهلال تشفياً منهم.

وهذه الكنيسة هي أهم المباني الحديثة في المدينة القديمة، وإلا فإن فيها أبنية قديمة أهمها مبنى تهدم بعضه يشبه القلعة، لم يعرف مرافقنا تاريخه.

ابتداء عمارة المدينة:

أما عمارة مدينة تالين القديمة فإن ابتداءها كان في عام ١١٧٠م، وكانت صغيرة جداً، كما يوضحه حجم المدينة القديمة التي لا تعد مساحتها شيئاً بالنسبة إلى مساحة المدينة الحالية.



في مدينة تالين القديمة: علي خراسوف، على يمينه المؤلف، وعلى يساره الأستاذ حسن إزميرلي

ويبلغ سكان مدينة (تالين) في الوقت الحاضر ستمائة ألف من مجموع سكان جمهورية إستونيا البالغ مليوناً وثلثي المليون نسمة.

وجميع شوارع هذه المدينة القديمة مبلطة بالحجارة الصغيرة، وكثير من بيوتها مطلية بطلاء أصفر مثل البيوت القديمة في هلسنكي عاصمة فنلندا القريبة منهم، وكثير منها ليست له نوافذ كبيرة، وليس فيها شرفات أصلاً.

والمشكل أن المطر بدأ يهطل عندما بدأنا الصعود مشاة مع الدرج إلى المدينة القديمة، ولم تكن معنا مظلات.

وزاد الأمر صعوبة أن البيوت القديمة ليس فيها شيء بارز من الحيطان كما يكون بروز الشرفات (البلكونات) في العادة، كما أن شوارعها ضيقة.

على رأس المدينة:

سرنا في شوارع المدينة القديمة الضيقة تحت المطر المنهمر إلى مكان عالٍ يطل على المدينة الجديدة اسمه (بيالننا) بمعنى رأس المدينة باللغة الإستونية، فبيا: رأس، ولننا: مدينة، ويراد بها هذه المدينة القديمة، وهذا اسم قديم لها، وإلا فإن هذا المكان الآن صار لا يمثل المدينة في الوقت الحاضر.

ويطل رأس المدينة على جزء كبير من المدينة نفسها، ولا نقول: المدينة الحديثة، لأنها ليست كلها حديثة إلا بالمقارنة بالمدينة القديمة هذه.

ولقد التقطت صوراً تحت المطر للمدينة، ولا أدري أتكون واضحة أم لا؟.

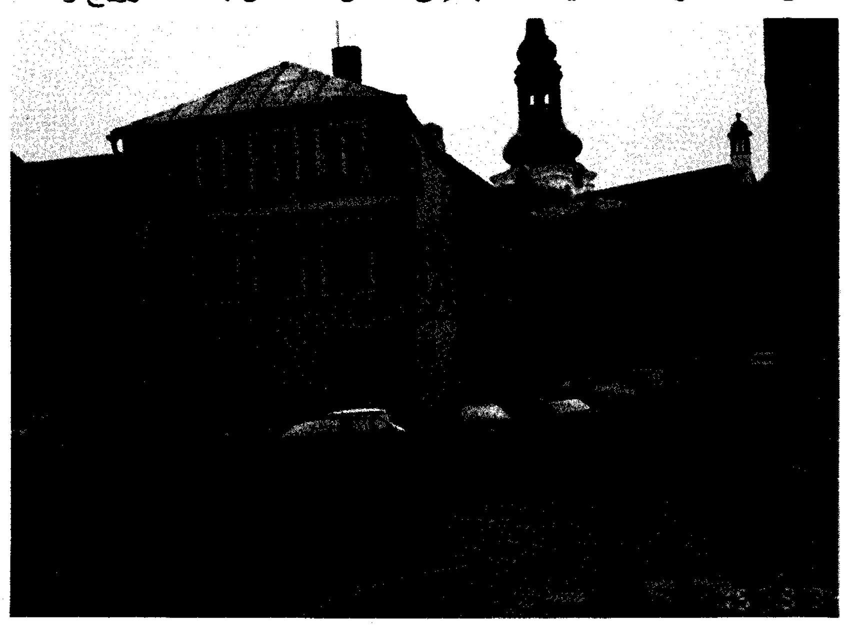


منظر لمدينة تالين من التلة في المدينة القديمة

وقد تظرف أحد المرافقين فقال: لقد بلل المطر رأس المدينة اليوم كما بلل رؤوسنا.

واستمر المطر يهطل، فلجأنا إلى ظل شجرة وافرة الأغصان، ريانة الفروع إلا أن المطر زاد، وادلهمت السماء بالسحب السود. فرجعنا نعدو تاركين رأس المدينة القديمة، داخلين قلبها إلا أننا لم نستقر فيه، وإنما أسرعنا العودة إلى (ميدان الحرية) الذي يسمون (قابا دوسا فليق) لهذا المعنى. وعندما وصلنا إليه التقطت له صورة من جانب المرتفع الذي تقع فيه المدينة القديمة ،وقلت في نفسي والمطر يتصبب من رأسي ووجهي: أيوم كيوم فنلندا؟.

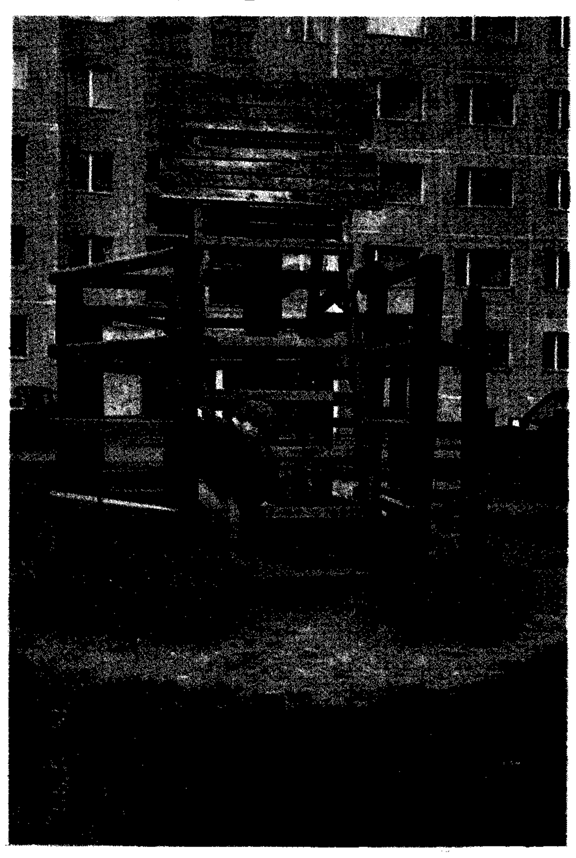
ويوم فنلندا يوم في عاصمتها هلسنكي قبل أقل من سنتين، وكان ذلك في منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٩٢م عندما زرتها، واستمر المطر والبرد والضباب مدة ثلاثة أيام، فاضطررت للجولة فيها مع أخ لبناني عضو في الجمعية الإسلامية لأن وقتي لا يسمح لي بانتظار الشمس أن تصحو، أو على الأصح بانتظار شمس بلادنا المشرقة أن تطل على هذه الأرض الشمالية العابسة وقد ذكرت ذلك في كتاب"إلى شمال الشمال:بلاد النرويج وفنلندا".



مبانٍ قديمة في القسم القديم من تالين

ثم عدنا إلى سفارة روسيا البيضاء لأخذ الجوازات منها ، فاخترقنا وسط المدينة ، وقد خف سقوط المطر ، إلا أنه خلف مناقع صغيرة في الطريق الذي كان فيه في الأصل حُفَر ونُقَر.

ودخل الرفاق إلى مبنى سفارة روسيا البيضاء ، فالتقطت مصورتي ورحت أتجول ما بين (العمائر) وهي الأبنية العالية التي يتألف منها الحي، وكلها بدون استثناء كذلك، فليس فيها أبنية طابقين أو ثلاثة ، فضلاً عن البيوت المنفردة ، فوجدت انهم جعلوا في وسط مجموعة منها حوضاً فيه رمل ليلعب فيه الأطفال، ولم أرَ فيه إلا طفلاً واحداً ، كما رأيتهم نصبوا خشباً خشناً لكي يصعده الأطفال، عليه طفل واحد أيضاً ، ومع كل طفل من الطفلين أمه.



طفل في ملعب خشبي بدائي في حديقة أمام مبانٍ سكنية في تالين

وفي هذا المتسع من الأبنية المذكورة حديقة غير واسعة رأيت فيها عدة قطط من التي اعتادوا على تربيتها في بيوتهم، وهي قطط معتادة لم أرَ فيها إلا أنها آنسة بالناس لا تنفر منهم، ورأيت في هذا الميدان أردية من أغطية الأسرّة مغسولة ومنشورة كي تجف.

وذكرت بهذه المناسبة قولة أحسست بصدقها عندما زرت سرلنكا (سيلان) لأول مرة بأن الجمال فيها هو في طبيعة البلاد، وليس في مظاهر الناس. فقلت: هنا العكس من ذلك، وهو أن الجمال في الناس، وأما الأبنية والشوارع والميادين التي هي من صنع الإنسان فإنه لا جمال فيها.

إلى بحيرة أولامستا:

البحيرات الكبيرة والصغيرة مثل الأنهار موجودة، بل متعددة في أقطار البلطيق.

لم نعرج بوسط المدينة عندما أخذنا جوازاتنا من سفارة روسيا البيضاء، وإنما ذهبنا إلى بحيرة قريبة من المدينة اسمها (أولامستا)، وتقع على بعد ٦ كيلو مترات من المدينة، فسلكنا طريقاً ذكر الأخ علي خراسوف أنه الذي يذهب إلى مدينة بطرسبورج، وهي لينين قراد في زمن الشيوعية، ولا تبعد عن تالين إلا بـ ٣٥٠ كيلو متراً.

وهذا يدل على الواقع الذي ينبغي تذكره وهو أن مدينة تالين وما حولها تقع إلى الشمال من مدينة موسكو كثيراً، والمراد أنها تقع على خط عرض يمر بالشمال من مدينة موسكو.

ثم عدلنا إلى طريق ريفي مزدوج تفصل بين طريق الذاهب والآيب فيه جزيرة فيها أعشاب برية، وفيها أعمدة الإضاءة مطفأة لأن الوقت لا يزال ظهراً، إلا أن السيارات التي تسلك هذا الطريق مصابيحها متقدة.

وكان المطر يهطل، ولذلك وقف بنا الأخ علي بسيارته عند المطار وهو

قريب من قلب المدينة، ويعتبر على ضفة هذه البحيرة، فالتقينا في رواقه المطر، والتقطنا صوراً تذكارية للبحيرة على شيء من البعد.

أصل البحيرة:

كان يصحبنا بالسيارة الأخ (ولي الله فاتح أوغلو) أحد الإخوة المسلمين النشطين في العمل في الجمعية الإسلامية مع رئيسها مرافقنا الأخ (علي خراسوف)، فذكر الأخ ولي الله: أن للعامة في هذه البلاد أسطورة عن كيفية تكون هذه البحيرة، وملخصها أن رجلاً وزوجته كانا متحابين أشد الحب، وكانا يسكنان في مكان البحيرة، فماتت زوجته، فحزن عليها الزوج، وبكاها بدموع غزار بلغ من غزارتها أن نشأت منها هذه البحيرة التي صارت السيول تمدها بعد ذلك.

ومعنى اسمها (أولامستا): فوق الجبل، لأنها في مكان مرتفع تأتي إليه المياه من أماكن أكثر ارتفاعاً منه.

ثم عدنا إلى الفندق، وأردنا أن نعرف مواعيد الطائرات التي تسافر غداً إلى منسك عاصمة روسيا البضاء، فوجدنا كل مواعيد الطائرات القادمة إلى تالين، والمغادرة منها في لوحة معلقة في الفندق، وهذا من حسناته الكثيرة، فاخترنا الرحلة المناسبة، وحجز لنا أهل الفندق عليها من دون أن نغادر الفندق، وهذا شيء لا يوجد في البلدان الشيوعية، أو أكثر التي كانت شيوعية من قبل.

مع أعضاء الجمعية الإسلامية:

كان لنا موعد للاجتماع بأعضاء الجمعية الإسلامية التتارية في الساعة السابعة من مساء اليوم، على أن يكون الاجتماع في قاعة جرت عادتهم أن يستأجروها ليصلوا فيها صلاة الجمعة، وذلك لكون الجمعية ليس لها مقر

خاص بسبب عجزها المالي عن استئجار مقر لها ، فضلاً عن بناء مقر أو تملّكه. وإنما كانوا يجتمعون إذا دعت الحاجة في بيت رئيس الجمعية.

حضرنا في الوقت المحدد ، فوجدنا بعض الأعضاء العاملين في الجمعية ، وهم ٥ رجال و٨ نساء؛ على العادة التي لاحظناها في كل البلاد التي فيها مسلمون تتار وهي أن يكون عدد النساء العاملات في الجمعية الإسلامية أكثر من الرجال فيها؛ بل إن المسلمين التتار في مدينة غدانسك البولندية الشهيرة انتخبوا لرئاسة الجمعية أختاً مسلمة هي الدكتورة (جميلة مورمان)، وعندما اجتمعنا بالمسلمين هناك كان عدد الحاضرات من النساء العاملات في الجمعية أكثر من عدد الرجال.

تكلم الأخ (علي خراسوف) فشكر الله على حضورنا ، وذكر شيئاً من أعمال الجمعية ، وأن من أهم ذلك استئجار قاعة في هذا المكان لصلاة الجمعة والعيدين، وذكر أنهم يستأجرونها لهذا الغرض بالساعة ، ثم ذكر طلباتهم الملحة ، وهي بسيطة:

أولها: دفع تذاكر طالبين اثنين مقبولين في الأزهر ، ولكن الأزهر لا يدفع لهما التذكرة ، وهم عاجزون عن ذلك.

وثانيها: المساعدة على الحصول على أرض المسجد ، وذكروا أن الحكومة مستعدة لمنحهم الأرض ، لكنهم عاجزون عن دفع مصاريف تسجيلها وتخطيطها ، وذكروا أنه يكفي لذلك ألف دولار أمريكي.

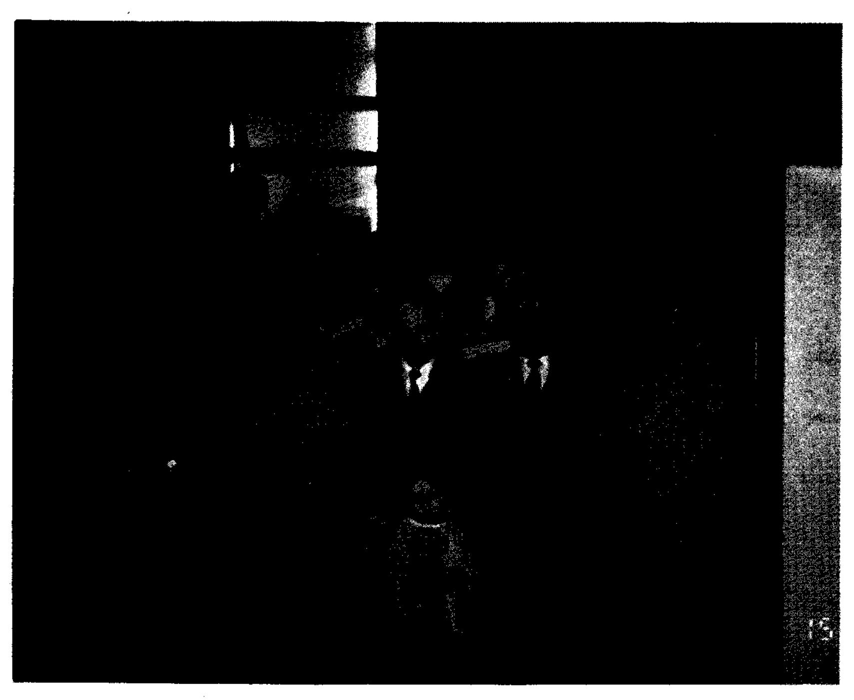
ثالثها: دعم الجمعية مالياً ، لأنها تعاني صعوبات في الحصول على الأموال الضرورية لاستئجار هذا المكان المؤقت، وتعليم الأولاد.

رابعها: أن الطالبين اللذين سيرسلان إلى مصر لا يدفع لهما الأزهر مكافأة كافية ، لذلك يرجو أن تساعدهم الرابطة بشيء يعينهم على الإقامة هناك.

وقد ألقيت فيهم كلمة تضمنت الحمد والشكر لله الذي قدر هذا

الاجتماع المبارك بهؤلاء الإخوة الأعزاء الذين هم من التتار، الذين حافظوا على انتمائهم الإسلامي طيلة القرون، وبخاصة إبان الحكم الشيوعي الملحد، وهم الآن يعملون على العودة الصادقة للعمل بما يوجبه الدين الإسلامي الحنيف من العبادات المفروضة؛ رغم ضيق ذات اليد، وقلة الأنصار، وانقطاع الصلة ما بينهم وبين إخوتهم المسلمين في الحواضر الإسلامية لعقود متطاولة من السنين.

وقلت لهم: إننا جئنا من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، لا لغرض سياسي، أو اقتصادي، وإنما من أجل الالتقاء بكم، والتعرف على أحوالكم، وسماع ما تودون أن تسمعونا إياه من أخباركم، وبيان احتياجكم في العمل الإسلامي في الوقت الحاضر.



تذكارية عند مطلع القاعة مع الجماعة الإسلامية في مركز سكالا سنتر في تالين (إستونيا)

وبينت لهم أهداف رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وعملها في

التعاون مع المسلمين على البر والتقوى.

وأعلنت لهم في النهاية الاستجابة لطلباتهم العاجلة التي قدموها، فأعطيناهم فوراً قيمة تذكرة الطالبين بالدولار الأمريكي، وأعطيناهم الألف دولار التي طلبوها للحصول على أرض المسجد رسوم التسجيل ونحوه، وأخبرتهم أننا سنقدم لهم من الرابطة مبلغ عشرة آلاف دولار أخرى من أجل البدء بعمارة المسجد إذا أرسلوا لنا ما يفيد بأنهم قد حصلوا على أرض المسجد وسجلوها في الدوائر الرسمية هنا لهذا الغرض، إذا أثبتوا ذلك بتصديق السفارة السعودية في موسكو، أو من الشيخ عبد الله صفا رئيس الإدارة الدينية في جمهورية (تتارستان)، وقد ذكرته لهم بالذات لأنه ثقة، ومعروف لدينا، ولكونه - زيادة على ذلك - من التتار الذين ينتمون إليهم.

ثم قدمت لهم ثلاثة آلاف دولار من رابطة العالم الإسلامي لدعم جمعيتهم الإسلامية عسى أن تتمكن من استئجار محل يكون مقراً للجمعية، وعندئذ يمكنهم أن يكتبوا إلينا في الرابطة لكي نقدم لهم مساعدة أخرى لهذا الغرض.

وقد كرروا الطلب إلينا أن نحضر معهم صلاة الجمعة غداً، ولكن طائرتنا التي حجزنا عليها سوف تغادر قبل ذلك، ولذلك لا نتمكن من حضور صلاة الجمعة. ودعونا لهم بالتوفيق، وأخبرناهم بسرورنا لكونهم يقيمون الجمعة، وطلبنا منهم أن يحرصوا على أن يحضروا معهم للجمعية أطفالهم الذين تزيد أعمارهم على سبع سنين.

الخلاعة في الفندق:

لم نلاحظ منذ دخولنا إلى الفندق البارحة حتى الآن أي مظهر غير معتاد، بل إنه ليس هناك خلاعة ظاهرة مثل وجود نساء ينظرن في وجوه الرجال فيه أو حوله، أو وجود رجال مع نساء، ولكننا عندما عدنا إلى غرفنا في هذا المساء وجدناهم وضعوا في حمام كل غرفة من الغرف كيساً صغيراً

من البلاستك فيه الغلاف أو القناع الذي يضعه الرجل عندما يريد مباضعة أهله، ولا يريدها أن تحبل.

وهذا من الاعتراف من إدارة الفندق، وربما من إدارة السياحة بأن النزيل قد يحضر معه أحداً إلى غرفته، فجعلوا له هذا القناع حتى لا ينقل المرض إليهم عن طريق الاتصال الجنسي.

وليس ذلك فحسب، وإنما جعلوا مع هذا القناع كتيباً صغير الحجم جداً ذا صفحات عديدة فيها رسوم يدوية هزلية لجميع أنواع الجماع المعتاد وغير المعتاد، المحظور منه وغير المحظور، مما يدل على أنهم لا يحظرون شيئاً من ذلك، وقد رسموا تلك الرسوم الكاريكاتورية بطريقة تدل على أنهم يعترفون بها، أو أنهم يجيزونها.

يوم الجمعة: ١١/ ٤/ ١٤١٥هـ ١٦/ ٩/ ١٩٩٤م.

جولة في ضواحي تالين:

خرجنا اليوم في جولة على المعالم المهمة في ضواحي مدينة تالين، وكان الجو غائماً بارداً، وقد جلل الآفاق سحاب أسود قاتم.

وكانت جولتنا كالعادة على سيارة الأخ علي خراسوف التي يسوقها بنفسه، ولما ذكرنا إحساسنا بالبرد الآن قال: إن المعتاد أن تكون درجة الحرارة في الصيف في وسط النهار ٢٢ درجة مئوية أو ما حولها، لكننا الآن في الخريف.

وكانت الساعة التاسعة عندما غادرنا الفندق وقد دفعنا له أجره وهو ٩٠٠ كرونة إستونية، ويساوي الدولار الواحد ١٢,٥ ونصفاً، ويستحق الفندق هذا المبلغ لجمال مبناه، ولطف معاملة أهله، ومن انفراداته أن بابه دوار، وهو واسع جداً، قد وضعوا فيه أحواض زهور مليئة بالزهور الملونة، فتراها تدور بدوران الباب معك كلما دخلت أو خرجت.

وحملنا معنا أمتعتنا، لأننا سنذهب من الجولة مباشرة إلى المطار.

خرجنا من المدينة مع شارع يسمونه (كاتري يورك) ذكروا أنه منسوب إلى الإمبراطورة كاترينا، وأظنها إمبراطورة روسيا.

ثم خرجنا مع شارع الشاطئ، الذي يدع ساحل البحر، وهو بحر البلطيق إلى اليسار. وقد اجتمعت خضرة المياه الضحلة في جهة اليسار مع خضرة الرصيف، أو لنقل حاشية الشارع، وهي عريضة جداً، وخضراء خضرة طبيعية إلى اليمين.

نصب الانتصار الروسي:

وصلنا إلى نصب أقاموه لانتصار الروس على الألمان في الحرب العالمية

الثانية التي مضى عليها الآن خمسون سنة على وجه التقريب.

وكانت هذه المنطقة من مناطق بحر البلطيق مسرحاً مهماً من مسارح الحرب إذْ كان الألمان قد احتلوها، واتخذوها رأس جسر ينطلقون منه إلى روسيا. أو لنقل إنها رأس جسر من عدة جسور أخرى لهذا الغرض.

وأبرز ما في هذا النصب بناء دقيق عالٍ كأنه المنارة الدقيقة.

وسألت الأخ علي خراسوف عن شعور (الإستونيين) تجاه هذا النصب؟ فقال: الحقيقة أن الناس هنا كانوا منقسمين إلى قسمين: قسم مع الروس، وقسم مع الألمان، وهذا كان زمن الحرب، ونفور الإستونيين من النازيين الذين احتلوا بلادهم، أما بعد أن هزم الألمان النازيون، وأكمل الروس احتلال البلاد، وحكموها بشيوعيتهم فإنه لم يبق من يؤيدهم إلا الأعضاء العقائديون في الحزب الشيوعي، وعددهم قليل إذا استثنينا الذين انضموا للحزب الشيوعي الحاكم بدافع المنفعة والحصول على المنصب.

وبالقرب من هذا النصب العالي الذي يشبه المسلة بنوا عدداً من المجالس أو المقاعد المتعددة التي يعلو بعضها بعضاً من أجل الاستراحة في المكان في الأيام المعتادة، وجلوس المدعوين خلال الاحتفالات، وهي من الحجارة.

والواقع أن المكان جميل جداً لأنه بجوار البحر في منطقة خضراء، ولكن الجو لا يكون جيداً في أكثر أيام السنة، إلا لمن اعتاد البرد مثلهم.

نهر بريتا:

مررنا على جسر فوق نهر (بريتا) الذي يصب في بحر البلطيق، وهو جم المياه، متوسط الحجم، والنقطة التي مررنا فوقها منه هي على شارع الشاطئ المجاور للبحر؛ حيث يصب النهر فيه.

وأجمل ما في شارع الشاطئ في هذا المكان غابات الأشجار والنبات تجاور

بعض ضواحي المدينة التي هي بطبيعتها منثورة واسعة، والمراد بها المدينة الحديثة.



ضفة نهر بريتا في تالين

وقفة على شاطئ البلطيق:

أردنا الوقوف على شاطئ البحر القريب، فأوقفنا سيارتنا في موقف للسيارة قرب مطعم اسمه (بريتا مستو) على اسم نهر (بريتا) هذا القريب منه.

ثم نزلنا إلى شاطئ بحر البلطيق، وهو رملي جيد، جميل المنظر، ومثل هذا الشاطئ مما يشدّ الأوربيون له الرحال، إلا أن الجو هنا في أوقات كثيرة من السنة يحرم مرتاديه متعة البقاء فيه للبرد والمطر الكثير.

ولم أرَ في هذا الشاطئ الرملي الجميل أي شخص، سواء أكان متنزهاً أم مرتاداً؛ لأن الجو غائم وينذر بالمطر، والهواء بارد، ولا سبيل إلى السباحة فيه.

وعندما أشار الأخ علي إلى جهة الغرب وقال: في هذه الجهة تقع هلسنكي عاصمة فنلندا على بعد ٧٠ كيلو متراً تذكرت أياماً لي فيها من أيام شهر أكتوبر قبل سنتين، وقد نزل الثلج فيها في الخامس عشر من شهر أكتوبر، بل إنني كنت أشاهد نزوله من نافذة الفندق الذي كنت أسكن فيه، ولكنه ليس كثيفاً، لأنه كان أول ثلج ينزل في تلك السنة، وكان الأشد من ذلك أن الريح كانت تهب عاصفة باردة كأشد ما يكون عليه برد الشتاء في بلادنا الباردة في شمال الجزيرة العربية.

وذكرت عند خلو هذا الشاطئ الجميل ما ذكره الأولون في أمثالهم، وهو قولهم: « أضيع من قمر الشتاء »، وذلك لكون الناس لا يخرجون في ليالي الشتاء من بيوتهم، فلا يرون القمر فيها.



على شاطئ بحر البلطيق قرب تالين، الأخ علي خراسوف، وعلى يمينه المؤلف، وعلى يساره الأستاذ حسن إزميرلي

وهنا لا يأتون إلى الشاطئ في هذا الخريف البارد؛ فضلاً عن الشتاء الشاتي، فلا يستمتعون به.

ثم تجولنا على صفة نهر بريتا ونحن نشهد ضياعه في بحر البلطيق، ولا أدري عما إذا كان النهر حزيناً أم مسروراً بهذا الضياع؛ لأنه يعود إلى حيث أتى في الأصل إذْ هو كان من بخار الماء الذي ارتفع من البحر وتكاثف حتى صار مطراً اجتمع فصار نهراً.

ولكنهم قد جملوا ضفة هذا النهر القريبة من البحر بأن جعلوا فيها مقاعد حجرية تحت الأشجار الوارفة إلا أنني لم أرَ فيها إلا الغربان.

وقد عجبت مرة أخرى من كثرة الغربان في مثل هذه المواطن الجميلة بعد أن كان قد ارتسم في ذهني أنها لا تكثر إلا في بعض المواضع التي لا تسمى جميلة في بلاد الهند - مثلاً - التي تكاد تكون (بلاد الغربان) تتفرد بذلك من دون سائر الأوطان لكثرتها فيها، ووجودها في الهند من أقصاها حيث كشمير في الشمال إلى أقصاها جنوباً في ولاية كيرلا على البحر العربي، وقد رأيت هذه الولايات كلها، وتجولت فيها، وكتبت عدة كتب في ذلك.

ركبنا سيارتنا وسرنا، ولم نكد حتى لمحنا قرب شاطئ البحر على الشارع عجوزين تدخنان، فكان الدخان من وجه كل واحدة منهما المتغضن أشبه ما يكون بالمدخنة الصغيرة لجدار من الطين الأحمر، إذ هما ذو وجهين متغضنين.

ولقد عجبت كثيراً من قلة الجمال في الوجوه البيض، إذا فقدت الجمال بفقد الشباب، ومعه فقد العيش الرغيد، والتغذية الصحية الكاملة، إذْ يكون الوجه أصفر شاحباً، أو أحمر متغضناً كدراً.

الغابة العذراء:

في هذا الجزء الذي يعتبر ضاحية من ضواحي المدينة تركوا جزءاً من غابة كثيفة كانت موجودة قبل أن تصل عمارة المدينة إليه، فحرموا قطعها، أو التصرف فيها، حتى أصبحت غابة عذراء كأنها لم تمسها يد إنسان، بل كما تركها الإنسان الأول إن كان قد جاء إلى هذه البلاد، ثم تركها. هذا مع أن الأشجار في بلادهم كثيرة، بل كثيفة، فالغابات هي الأصل في منطقتهم، وما كان منها خالياً من الغابات فإنما هو الاستثناء الذي قطعت منه الأشجار لغرض من الأغراض كالزراعة الحقلية، أو الحاجة إلى المنشآت الصناعية.

وخرجنا من الغابة إلى طرف الضاحية، فرأينا مدرسة للبنات وهن خارجات عند بابها الداخلي، فرأيناهن زهوراً تسير على الأرض.

ويلاحظ هنا أن السكان لا يكادون يزدادون عدداً، لذلك تكون المؤسسات، ومنها المؤسسات التعليمية كالمدارس ثابتة، أو شبيهة بالثابتة، بمعنى أنهم لا يحتاجون إلى افتتاح مدارس أخرى في الحي إذا كانوا قد فتحوا فيه مدرسة تكفيه من قبل.

ورأينا حافلات سياحية قادمة من فنلندا، وذلك لقربها ووجود أقارب لبعض السكان فيها، وذلك أن المسافة في البحر ما بين (تالين) عاصمة إستونيا والأراضي الفنلندية لا تزيد عن المسافة ما بين مكة المكرمة ومدينة جدة.

ثم مررنا ببرج عالٍ وسط منطقة خضراء قال الأخ علي: إن هذا البرج هو لشركة الكهرباء الوطنية، وكان مديرها مسلماً إلا أنهم فصلوه.

وقال: يجب أن تعرفوا أن المسلمين هنا على قلتهم يعتبرون متعلمين أكثر من غيرهم، ولذلك يشغلون وظائف مهمة أكثر من نسبتهم العددية، وذكر

أنه هو نفسه كان طياراً مدنياً عمل في الطيران لمدة عشرين سنة، ثم تقاعد منه، وهو الآن يتقاضى راتباً تقاعدياً عن عمله في الطيران لا يزيد على ٤٠ دولاراً. قال: وهي لا تصنع شيئاً، ولكنني أعمل الآن في إحدى الشركات.

وذكر أن كل شيء قد غلا سعره، وكثرت نفقته حتى أصبح هو يستهلك لجهاز الهاتف الذي يستعمله سواء ما كان معه يحمله في سيارته، أو في بيته نحو ٤٠ دولاراً في الشهر، وهو المقدار الذي يأتيه من معاشه التقاعدي.

وذكر أنه الآن يبلغ ٥٣ سنة من العمر، ولذلك لا يفكر في العودة إلى العمل في الطيران مع أنه عرف أن الطيارين المتقاعدين في السعودية يتقاضون رواتب عالية بخلاف هذه البلاد ..

ونوّه بأن جنسيته الآن إستونية مع أن أصله كان من تتار روسيا، ولم يكن من تتار القرم، ولا من تتار قازان.

ومن المعروف أن التتار شتتوا في أنحاء البلاد السوفييتية السابقة، وأن طاغية روسيا الشيوعية الهالك (ستالين) كان قد حكم على تتار القرم وطوائف من التتار الآخرين بالنفي العام، فنفاهم بالفعل إلى آسيا الوسطى وسيبريا.

ملخص عمل وفد الرابطة:

في نهاية جولتنا في بلاد البلطيق، وقد قيدنا في خلالها مشاهداتنا وملاحظاتنا المستوحاة من المشاهدات، وبخاصة ما يتعلق بواقع الإخوة المسلمين في تلك البلاد، رأينا تلخيص عمل الوفد تقريباً لفهم من يريد أن يعرف ذلك دون أن يقرأ ما ورد في الكتاب مما يعتبر رحلة أو أن يدخل في (فن الرحلة) في الأدب.

أولاً: لتوانيا:

فقد وصل وفد الرابطة برئاستي إلى مدينة فيلونس عاصمة لتوانيا **عصر يوم الأحد ٦/ ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ١١ /٩/ ١٩٩٤م.**

وبعد الاستراحة في فندق أستوريا تم الاتصال بالأستاذ أدس ياكوبا رئيس الجماعة التتارية المسلمة حيث تم الاتفاق معه على برنامج زيادات الجماعات الإسلامية في لتوانيا.

يوم الإثنين ٧/ ٤/ ١٤١٥هـ ١٢/ ٩/ ١٩٩٤م.

١-بدأ وفد الرابطة عمله بزيارة لمقر الجماعة التتارية اللتوانية المسلمة، وهو عبارة عن شقتين متقابلتين في الدور الثاني لمبنى من أربعة أدوار.

والتقى وفد الرابطة بشاب تركي اسمه موسى كينج آي، طالب يدرس اللغة اللتوانية في جامعة فيلونس، ويعمل أيضاً في هذا المقر بتدريس اللغة التركية، ومؤذناً أحياناً. وأفاد الشاب بأن الحكومة التركية تتولى مساعدة الجماعة أحياناً بالكتب، وتوفير بعض المنح الدراسية لأبناء المسلمين في تركيا... كما أنها عينت لهم إماماً اسمه إحسان ديلكجي يتولى إمامة المصلين، وخاصة في صلاة الجمعة في إحدى الغرف التي خصصت لأداء الصلاة... كما أن هناك فصلين دراسيين.

ويفيد الشاب أن الإقبال لأداء الصلاة ضئيل نظراً لجهل المسلمين بمبادئ الإسلام، وضعف الروح الدينية عندهم، ولكن اهتمام الشباب بالدين بدأ يتطور، وهم في حاجة إلى كتب إسلامية، وطلب تزويد الجماعة الإسلامية بعدد من جزء عم أي الجزء الثلاثين للمصحف الشريف، وترجمة معانيه باللغة التركية.

٢-ثم توجه وفد الرابطة إلى مدينة كوناس التي تقع على بعد ١٠٠ كيلو متر تقريباً غرب العاصمة فيلونس، وهي أكبر مدينة لتوانية بعد

فيلونس، ويقدر عدد سكانها بنحو ٤٣٣٠٠٠ نسمة، وأما المسلمون فعددهم نحو ألف نسمة، وعدد الطلاب العرب فيها ١٨٠ نسمة منهم مائة مسلم.

وزار الوفد فيها مسجد آق مسجد يعني المسجد الأبيض في شارع تتارسكاي، وهو المسجد الوحيد في مدينة كوناس يعود تاريخ بنائه إلى عام ١٩٣٠م، ثم أغلق بعد إلحاق لتوانيا بالاتحاد السوفييتي عام ١٩٤٠م، واستخدم مستودعاً، ثم أعيد إلى المسلمين منذ أربعة أعوام، والمسجد أنيق، وقد أعيد ترميمه بمساعدة حكومية عام ١٩٩٠م. وتقوم السيدة مريتا يوناس كير بنسكاتيا بشؤون نظافة المسجد، وأما شؤونه الإدارية والمالية، فالجماعة الإسلامية التتارية التي يرأسها السيد يوناس رزوانوفيتش تشرف عليه ويقوم بالإمامة فيه الطلاب العرب، منهم مروان الذيب وخالد طقش... ولا يوجد إمام دائم.

ثم اجتمع الوفد إلى أعضاء الهيئة الإدارية لجمعية الشباب المسلم غير الرسمية ويرأسهم الأستاذ مروان الذيب، واستمع إلى أحاديثهم التي تضمنت أفكارهم ونشاطهم في خدمة الإسلام والمسلمين في هذه الديار النائية التي لا يعرف فيها المسلمون المحليون عن دينهم الحنيف إلا اسمه ... وحثهم رئيس وفد الرابطة على مضاعفة الجهد في تعليم أبناء المسلمين وتوعيتهم بالإسلام وأحكامه.

ونظراً لحاجة المسجد إلى ترميم بعض أجزاء من سقفه وعجز موارده عن تسديد نفقات الكهرباء والتدفئة، فقد تبرع الوفد باسم الرابطة بالمبالغ الآتية:

ترميم وإصلاح المسجد	٣٠٠٠ دولار.
نفقات الكهرباء والتدفئة	١٠٠٠ دولار.
دعم نشاط الجماعة الإسلامية التعليمي	٢٠٠٠ دولار.

دعم نشاط جمعية الشباب المسلم ١٠٠٠ دولار.

٣- محافظة اليتوس تقع على بعد ٧٠ كيلو متراً جنوب شرق مدينة كوناس وفيها قرية ريجي، يقطنها أكثر من خمسمائة مسلم تتاري، وتبلغ نسبتهم ٤٠ ٪ من جملة سكان القرية البالغ عددهم ١٣٠٠ نسمة... وقد كانت قرية إسلامية في السابق، وكان للمسلمين فيها ٤٧ إقطاعية زراعية قبل الحرب العالمية الثانية كما يقول رئيس الجماعة الإسلامية التتارية فيها.

ومسجد القرية بني عام ١٨٨٩م، ولم يصادر أثناء الحكم الشيوعي، وقد رمم عام ١٩٩٠م كما بني أمامه مبنى صغير بمساعدة من الأتراك والأردنيين، وذلك لعقد الاجتماعات وفصول دراسية للأطفال.

والمسجد مبني من الخشب، وجددوا داخله بالخشب، وفيه منبر قديم يعود تاريخه إلى ما قبل ٣٦٨ عاماً حيث نقل إليه من مسجد احترق في بلدة أخرى. وإمام المسجد رجل مسن يبلغ من العمر ٨٠ خريفاً، ولا يزيد عدد المصلين عن ١٢ شخصاً. ونظراً لحاجة المسجد إلى تغطية نفقاته من الكهرباء والتدفئة ولوازم التعليم الإسلامي، فقد تبرع وفد الرابطة بمبلغ ألفي دولار نقداً.

٤- نيمه زيس قرية لا تبعد عشر كيلو مترات عن فيلونس، ويقع على مدخلها مسجد يعود تاريخه لأكثر من مائة عام، يجري حالياً ترميمه بمساعدة من الأتراك كما يقولون، ويقيم في هذه القرية بضع مئات من المسلمين التتار، ولكن من يحضر منهم لأداء الصلوات في المسجد قليل جداً بسبب جهلهم بمبادئ الإسلام.

وتحيط بالمسجد مقبرة للمسلمين تستخدم لدفن موتى المسلمين في فيلونس وما جاورها من الضواحي التي يقطنها المسلمون؛ حيث يقدر عددهم بحدود أربعة آلاف نسمة.

كما أن هناك مسجداً في قرية قزيق تتار التي تبعد عن فيلونس بنحو

٢٥ كيلو متراً، يعود تاريخه إلى عام ١٨١٥م، وهو مبني من الخشب وقد جرى ترميمه ويشبه في طرازه المساجد الريفية، وله بدلاً من المنارة قبة.

يوم الثلاثاء ٨/ ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ١٣/ ٩/ ١٩٩٤م.

بدأ الوفد عمله بالاجتماع إلى الهيئة الإدارية لاتحاد الجماعات الإسلامية التتارية التي تنتشر في لتوانيا، وعددها عشر جماعات، ويسعى للاهتمام بشؤونهم الثقافية والدينية بيد أن ظروف المسلمين الاقتصادية تحول دون التوسع في النشاطات، وكان الوفد سبق أن زار مقر هذا الاتحاد الذي يتكون من شقتين، وفيهما مصلى وفصول دراسية، ونظراً لأحوالهم المالية وأعمالهم التي يستحقون دعمها، وتشجيعها فقد قدم لهم وفدنا مبلغ ثلاثة آلاف دولار مقدماً.

ثم قام الوفد بزيارة لإحد الأحياء في مدينة فيلونس كان حياً إسلامياً يقطنه التتار المسلمون، وكان لهم مسجد ومقبرة، ولكن الحكومة الشيوعية أزالت المسجد والمقبرة، ومنازل المسلمين عام ١٩٦٨م، وبنت فيها مباني عالية تشغلها إدارات وشركات، وتقوم مباني معهدي الكيمياء والفيزياء في محل المسجد والمقبرة حالياً... ولم يبقَ شيء من آثار المسلمين سوى الاسم الذي أطلق على الشارع باسم شارع المسجد، وعدد من الأشجار القديمة التي كانت في المقبرة.

ثم تناول وفد الرابطة طعام الغداء في شركة يعمل فيها الأستاذ أدس ماكوبا رئيس الجماعة التتارية الإسلامية في فيلونس سابقاً، وتهتم الشركة المذكورة بزراعة الخضراوات والأزهار في محميات زجاجية، وتتطلع إلى علاقات تجارية واقتصادية مع دول الخليج العربي، وخاصة بالمملكة العربية السعودية.

ثانياً: لاتفيا:

لقد توجه وفد الرابطة عبر الطريق البري الذي يبلغ طوله ٣٠٠ كم من لتوانيا إلى لاتفيا، فوصل مدينة ريقا عاصمة لاتفيا مساء يوم الثلاثاء ١٣ / ٩ / ١٩٩٤م، وكانت أغلب الفنادق مزدحمة بالسياح، وتمكن بعد مشقة من إيجاد سكن له في فندق لاتفيا.

يوم الأربعاء ٩/ ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ١٤ / ٩ / ١٩٩٤م.

بدأ وفد الرابطة عمله بالاتصال بالسيد الدوس سابيتو رئيس الجماعة الإسلامية التتارية في لاتفيا الذي حضر إلى فندق لاتفيا، وأخذ وفد الرابطة في جولة إلى المواقع الإسلامية، منها مقبرتان إحداهما حديثة في خارج مدينة ريقا، وهي ضمن مقبرة عامة بدأ الدفن فيها كما يقول المذكور في عام ١٩٩١م، والثانية قديمة تقع ضمن مقبرة عامة في شارع بروزالكي في ريقا، يقول عنها بأن الدفن فيها ممنوع بعد أن امتلأت جنباتها بالمقابر، ويعود تاريخ أقدم قبر فيها إلى عام ١٩٠٦م.

ثم انتهى الوفد إلى مقر الجماعة الإسلامية التتارية، وهي عبارة عن شقة مستأجرة في مبنى من ثلاثة أدوار، اجتمع الوفد إلى جملة من المسلمين أكثرهم من النساء، وتحدث الدوس سابيتو عن مسلمي لاتفيا قائلاً: قبل الحرب العالمية الثانية كانت في لاتفيا ٤٩ عائلة مسلمة، ويبلغ عدد المسلمين حالياً أكثر من ١٢٠٠٠ نسمة في لاتفيا، يوجد منهم ما يقرب من خمسة آلاف نسمة في ريقا، والباقون يتوزعون في مدن يلفافا، ودواغافيلس، وفينيتس بيلس، ويكاب بيلس، وليبايا، ولكن لا يوجد مسجد في لاتفيا كما يفيد بأن المسلمين يجتمعون في الأعياد في قاعة يتم استئجارها في المركز الثقافي لشركة فيف.

وقد أدى وفد الرابطة صلاتي الظهر والعصر معهم، وكان الإمام الذي يؤم بالمصلين لصلاة الظهر قد أدى صلاة الظهر جهراً، وأخطأ في قراءة

التشهد والصلوات، كما أنه صلى ركعتين فقط.

وقد نبه وفد الرابطة الإمام والمصلين إلى الأخطاء التي ارتكبها الإمام، وحثهم على التفقه في الدين، وتعليم أبنائهم أحكام دينهم الحنيف، والاهتمام بأداء الصلوات التي هي الركن الثاني من لأركان الإسلام، وإقامة صلاة الجمعة، كما حثهم على الاهتمام لإيجاد مصلى، ووعدهم بمساعدة الرابطة لهم حال حصولهم على الأرض وإعداد الخرائط والوثائق، وشروعهم في بناء المسجد كما وعدهم بالمسعى لإرسال دعاة لهم من الذين يجيدون لغتهم، كما تحدث لهم عن استعداد الرابطة لتقديم عدد من المنح الدراسية لأبنائهم، وتقديراً لظروفهم المادية وتشجيعهم على الاهتمام بالعمل الإسلامي، فقد قدم لهم الوفد باسم الرابطة المساعدات التالية:

دعم النشاط التعليمي الإسلامي	٢٠٠٠ دولار.
استئجار مكان لإقامة الصلاة	٢٠٠٠ دولار.
مساهمة لشراء مكان يصلح مسجداً	١٠٠٠ دولار.

ثالثاً: إستونيا:

توجه وفد الرابطة بالسيارة عبر الطريق البري من لاتفيا إلى إستونيا؛ حيث وصل إلى مدينة تالين عاصمة إستونيا ليلاً يوم الأربعاء ٩/ ٤/ ١٤١٥هـ.

يوم الخميس ١٠ / ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ١٥/ ٩ / ١٩٩٤.

اجتمع وفد الرابطة إلى الأستاذ علي أحمد خاراسوف الذي حدث بأن المسلمين عددهم حوالي عشرة آلاف نسمة، ويوجد نصفهم في مدينة تالين، ولكن لا يوجد مقر لهم أو مسجد، وإنما يجتمعون في إحدى القاعات التي يستأجرونها لأداء صلوات الأعياد والجمع والاجتماعات العامة. وتقرر أن يلتقي وفد الرابطة ببعض مسلمي تالين، حيث عقد الاجتماع بهم في قاعة يكالاسنتر في الساعة الثامنة والنصف مساء يوم الخميس ١٠/ ٤/ ١٤١٥هـ.

وقد حضر الاجتماع ١٤ شخصاً نصفهم من النساء، وتحدث المفتي علي أحمد خاراسوف بأن عدد المسلمين نحو عشرة آلاف نسمة، منهم ٧٠٠٠ تتاري، و١٢٠٠ آذري بالإضافة إلى عدد من الأوزبك والأكراد والقازاق. والتتار المسلمون هم أقدم وجوداً، وخاصة التتار القادمين إليها من لتوانيا، ثم يليهم التتار القادمون من القرم والفولغا، كما أن هناك عدداً من الطلاب المسلمين القادمين من بلدان عربية وإسلامية مثل فلسطين.

وقبيل الحكم الشيوعي كان للمسلمين مسجدان، أحدهما في تالين، والثاني في مدينة نارفا، وقد أزالهما الشيوعيون إبان العهد السوفييتي، ولكن المسلمين يسعون لإنشاء المسجد، إلا أن الظروف المادية لا تسمح لهم بذلك، وأضاف بأن المسلمين يحتاجون إلى التوعية والإرشاد، وتعليمهم أمور دينهم، وقد أرسل أحد الشباب إلى تركيا، والآخر في طريقه إلى الأزهر في مصر.

وقد حثهم رئيس الوفد على الالتزام بأداء الصلوات المكتوبة لأنها عماد الدين، ودعاهم إلى بذل الجهد والسعي لإيجاد مكان ثابت لأداء الصلوات، وخاصة صلاة الجمعة. وقال لهم بأن الرابطة على استعداد للمساهمة معهم في

التشهد والصلوات، كما أنه صلى ركعتين فقط.

وقد نبه وفد الرابطة الإمام والمصلين إلى الأخطاء التي ارتكبها الإمام، وحثهم على التفقه في الدين، وتعليم أبنائهم أحكام دينهم الحنيف، والاهتمام بأداء الصلوات التي هي الركن الثاني من لأركان الإسلام، وإقامة صلاة الجمعة، كما حثهم على الاهتمام لإيجاد مصلى، ووعدهم بمساعدة الرابطة لهم حال حصولهم على الأرض وإعداد الخرائط والوثائق، وشروعهم في بناء المسجد كما وعدهم بالمسعى لإرسال دعاة لهم من الذين يجيدون لغتهم، كما تحدث لهم عن استعداد الرابطة لتقديم عدد من المنح الدراسية لأبنائهم، وتقديراً لظروفهم المادية وتشجيعهم على الاهتمام بالعمل الإسلامي، فقد قدم لهم الوفد باسم الرابطة المساعدات التالية:

دعم النشاط التعليمي الإسلامي	٢٠٠٠ دولار.
استئجار مكان لإقامة الصلاة	٢٠٠٠ دولار.
مساهمة لشراء مكان يصلح مسجداً	١٠٠٠ دولار.

الفهرس